أوراق باحث

إصدارات تعنى بالقضية الفلسطينية
والصراع مع المشروع الصهيوني

الحركات السلفية والتكفيرية

رؤى وممارسات

باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

الحركات
السلفية والتكفيرية
رؤى وممارسات

باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

الطبعة الأولى

2016

بيروت– لبنان
تلفاكس: 01/843882
www.bahethcenter.net
contact@bahethcenter.net
النسخة الإلكترونية
www.almanhal.com

الحركات السلفية والتكفيرية

رؤى وممارسات

زينب مروة

محمد شكر

ثبت المحتويات

تقديم 7

القسم الأول: السلفية الوهّابية والسلفية الجهادية 9
الفصل الأول: نشأة السلفية الوهّابية وتطوّرها 11
أولاً: نشأة السلفية الوهّابية 13
ثانياً: أفكار السلفية الوهّابية 21
ثالثاً: سمات الحركة السلفية 32

الفصل الثاني: السلفية ما بين التقليدية و"الجهادية" 37
أولاً: تيارات الحركات السلفية 39
1 - السلفية والجهاد 41
2 - السلفية والسياسة 42
3 - السلفية والتنظيم 43
ثانياً: التنظيم الهيكلي للجماعات السلفية 44
1 - أسباب الفوضى الاعتبارية 45
2 - القيادة الاعتبارية 45
3 - آليات القيادة الاعتبارية 46

الفصل الثالث: الحركات السلفية و"الإخوان المسلمون" 49
أولاً: السلفية و«إخوان مصر» 51
ثانياً: الإخوان المسلمون والوهّابية 57
ثالثاً: «الإخوان» والمقاومة ضدّ «إسرائيل» 61

الفصل الرابع: السلفية "الجهادية" وروافدها 67
أولاً الإخوان المسلمون والسلفية «الجهادية» 69
ثانياً: القاعدة كأبرز تنظيم للسلفية «الجهادية» 73
ثالثاً: الجماعات السلفية تكفّر الشيعة 82

رابعاً: «إسرائيل» والجماعات السلفية 89
الخاتمة 97

القسم الثاني:
الحركات التكفيرية و"الربيع العربي".. وفلسطين 101
تمهيد 103
لمحة تاريخية حول السلفية 106
أولاً: السلفية الجهادية... فكر وممارسة 108
ثانياً: الحركات «الجهادية» وثورات «الربيع العربي» 115
رابعاً: فلسطين في فكر الحركات السلفية 121
1 - الجماعات السلفية في مصر 124
2 - القاعدة والحركات السلفية الأخرى 128
خامساً: الحركات السلفية «الجهادية» في دول الطوق 133
خاتمة 138

تقديم

شكّل صعود الحركات والجماعات السلفية والتكفيرية في المنطقة خلال الأعوام الأخيرة مفاجأة للمراقبين والخبراء والمحلّلين السياسيين، ليس بسبب منسوب العنف والوحشية المرتفع الذي مارسه ـ ويمارسه ـ أتباع هذه الجماعات الإرهابية المتطرّفة فقط؛ بل لمدى أو حجم الانتشار الواسع الذي استطاعت تلك الجماعات تحقيقه خلال أعوام قليلة، وخصوصاً بين الفئات الشابة في المجتمعات العربية والمسلمة في أغلب بلدان ودول العالم.

كذلك، فإن احتلال بعض تلك الجماعات السلفية لمناطق شاسعة في العراق وسوريا وليبيا واليمن، على خلفية ما سمّي بـ«الربيع العربي» الذي بدأ من تونس في أواخر العام 2010، وتمكّن هذه الجماعات من إطلاق موجات واسعة من العمليات الإرهابية الوحشية، بموازاة الاجتياح العسكري المذكور، في ظلّ بيئة حاضنة (سنّية) تتوسع باستمرار؛ كلّ هذا الواقع السياسي ـ الأمني الجديد، والذي تأسس على مرتكزات مادية وفكرية قوية (موارد مالية ضخمة ـ أفكار وفتاوى مزيّفة)، والذي عكس ـ ويعكس ـ تداعيات كبرى على ملفات المنطقة الرئيسية، يدفع للاهتمام المتزايد بهذه الظواهر التكفيرية الخطيرة والمرعبة، والتي كسرت أو أزالت الحدود الجغرافية، وحتى القيم الإنسانية والأخلاقية التي سارت عليها الأمم والشعوب منذ عقود في هذه المنطقة المنكوبة المسمّاة بالشرق الأوسط.

ورغم صدور عشرات الكتب وآلاف الدراسات والأبحاث حول الحركات والجماعات السلفية و«الجهادية» التكفيرية، التي استشرى خطرها خلال الأعوام الماضية، والتي ركّزت على المباني الإيديولوجية والفكرية لهذه الحركات، وعلى تاريخها البعيد والقريب، وتجاربها الميدانية ونزاعاتها الداخلية، إلاّ أن الحاجة تبقى موجودة، بل وملحّة، لإعداد دراسات وتحليلات متتابعة حول هذه الجماعات والتنظيمات التفكيرية التي ملأت الأرض فساداً وخراباً، وعملت في البشر تقتيلاً وذبحاً، في كلّ المناطق التي استطاعت الوصول إليها والتمركز فيها.. وتالياً، دراسة حديثة (من قسمين متكاملين لكاتبين مختلفين) حول الجذور التي انبثقت عنها تلك الحركات، والتي لا يخفى أنها تعود إلى أفكار وفتاوى أحمد بن حنبل وابن تيمية، وصولاً إلى محمد بن عبد الوهّاب، الذي تسير على «هداه» السعودية منذ نشأتها وحتى اليوم، وبما أثمر كلّ هذا المشهد الأسود المقيت الذي تتابع أمّتنا فصوله في سوريا والعراق وغيرهما منذ عدّة أعوام.

في **القسم الأول** من هذه الدراسة كلام حول نشأة السلفية الوهّابية وتطوّرها، والفوارق بين السلفية التقليدية والسلفية «الجهادية» التكفيرية، والتنظيم الهيكلي لهذه الجماعات، وعلاقاتها بجماعة الإخوان المسلمين المصرية، ومواقف تلك الجماعات من الشيعة ومن المقاومة ضدّ «إسرائيل» ومن «إسرائيل» نفسها! أما **القسم الثاني** من الدراسة، فيركّز على البعد السياسي والميداني في حركة الجماعات المتطرّفة، والتي تشمل القاعدة والجماعات التي انشقّت عنها، وتأثيرها على فلسطين (كقضية) والدول المجاورة لها.

القسم الأول

السلفية الوهّابية والسلفية «الجهادية»

زينب سروّة*

* باحثة لبنانية.

الفصل الأول

نشأة السلفية الوهّابية وتطوّرها

أولاً: نشأة السلفية الوهّابية

شهدت الأمّة الإسلامية بعد وفاة النبي محمد (ص) خلافات سياسية وفكرية وانشقاقات مذهبية بين المسلمين، حيث بدأت تيّارات متعدّدة بالظهور. والصراع على الخلافة كان الحجر الأساس في هذا التناحر والانقسام في بُنيان الأمّة، حتى بدأت الملل والمذاهب تطغى شيئاً فشيئاً على روح الدين الحنيف ومبادئه الأساسية.

وظاهرة الجماعات السلفية في الإسلام هي ظاهرة قديمة قدم مسألة الخلافة. وهذه الجماعات فرضت وجودها فيما بعد، محتكرة الفكر الإسلامي الأصيل، ومنكِرة على الآخرين إسلامهم. وأحمد بن حنبل وابن تيميّة هما من ضمن الذين أسّسوا النواة التاريخية لتلك الجماعات السلفية، والتي تعود بالإسلام (بحسب زعمهم) إلى منبعه الأصيل، أي إلى السلف الصالح.

أما في التاريخ المعاصر، فقد "نمت تلك الجماعات وترعرعت في أواخر القرن الثاني عشر هجري، الموافق للقرن الثامن عشر ميلادي، على يد محمد بن عبد الوهّاب (1703 – 1792)، الذي ولِد في بلدة نجد، وسط شبه الجزيرة العربية، والواقعة في منطقة العينية شمال الرياض، ونشأ في عائلة ذات علم ودين، حيث كان أبوه قاضياً في العُيينة وحُريملاء. كما كان جدّه مفتي نجدً وإماماً في الفقه، وكذلك كان عمّه"[1].

ومحمد بن عبد الوهّاب هذا كان قد بلور في الواقع أفكار وآراء الخوارج[2]،

1– القصيمي، عبدالله، الثورة الوهابية، دار الانتشارالعربي، بيروت، الطبعة الثانية 2007، ص 21، فقرة2.

2– الخوارج هم فرقة من المسلمين خرجت على طاعة الخليفة الإمام علي بن أبي طالب (ع) بعد حرب صفّين بينه وبين معاوية.

حتّى اعتبر العديد من علماء السنّة بأنّه كان يسلك طريقهم في تكفير المسلمين، وتطبيق الآية التي نزلت في حقّ الكفّار: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية 44]، في حين يرى هو وأتباعه أنهم أهل السنّة الحقيقيون! وقد أخذ محمد بن عبد الوهّاب ينشر معتقدات المُجسّمة مُضرماً نيران الفتن، حتى أنه شكّل سابقةً في زمانه؛ وهو كان حنبليّ المذهب، فصار يجتهد في بعض المسائل، حيث رأى أنّ ما عليه المسلمون من أصحاب المذاهب الأخرى يخالف رأيه، فبات يدعو لآرائه ويعمل لها، ويهاجم الآراء الأخرى بعنف. لكنه جوبه بالمعارضة والصدّ من العلماء والأمراء ووجوه الناس، باعتبار آرائه تخالف ما فهموه من الكتاب والسنّة. حتى أنّ والده كان دائماً من المتصدّين له والمعارضين للمعتقدات التي أتى بها، وهو قال فيه: «يا ما ترون من محمّد الشرّ»، حيث نقل ذلك مفتي الحنابلة بمكّة المكرّمة، الشيخ محمد بن عبد الله النجدي الحنبلي، في كتابه «السحب الوابلة». وكذلك عارضه الكثير من المشايخ الذين اعتبروا أنّه سيكون منه زيغٌ وضلال[3]. كما كان أخوه ممّن عارضوه، وهو ألّف كتاباً تحت عنوان «الصواعق الإلهية في الردّ على الوهّابية»، وكان هذا الكتاب بمثابة ردٍ على أفكار محمد بن عبد الوهّاب العقائدية[4].

وبسبب تلك الأفكار المغلقة، قامت بوجه محمد بن عبد الوهّاب بعض المذاهب، وكثر من حوله الأعداء، حتى نصحه والده بمغادرة العينيّة. وفي سبيل التخفيف من حدّة المواجهة، هاجر إلى البصرة لتلقّي العلم. إلاّ أنّه طُرد منها، فاتّجه إلى الشام، ولم يوفّق فيها. فعاد إلى موطنه في الخفاء، وانكبّ على

3- رسالة علماء تونس المحميّة إلى الضالّ الوهّابي، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2007، ص 4 - 5.

4- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، شبكة الإنترنت.

دراسة كتب ابن تيميّة، حيث تأثّر به تأثّراً شديداً. كما درس كتب ابن القيّم الجوزية، تلميذ ابن تيميّة[5].

ومع تبلور أفكار أحمد بن حنبل وابن تيميّة التي كانت تعتبر أن البلاد التي لا تعمل بالشريعة الإسلامية هي بلاد كفر، وبما أنّ محمد بن عبد الوهّاب من المتأثرين بهذه الأفكار، فهو رأى بأن بلاده بلاد كفر لغياب الشريعة الإسلامية عن الأحكام التي كانت تُعتمد فيها. وفي سنة 1740م، وتحت ذريعة فريضة الهجرة من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام، توجّه محمد بن عبد الوهّاب إلى الدّرعية، حيث التجأ إلى محمد بن سعود، جدّ العائلة السعودية الأوّل، وشيخ قبيلة عَنْزَة، وكان خصماً لشيخ العُيَيْنَة ويقيم في بلدة الدِّرعية، وكانت تبعد ستّ ساعات فحسب عن العُيَيْنَة. وهناك لقي محمد بن عبد الوهّاب حفاوة وترحيباً، وصار يبثُّ آراءه وأفكاره بين الناس في الدّرعية وما جاورها؛ وما إن مضت مدّة حتى اكتسبت أفكاره وآراؤه هذه أنصاراً ومؤيّدين، فمال إليها الأمير محمد بن سعود وأخذ يتقرّب من الشيخ، وتمّ الاتفاق بينهما. وكان اتفاق الدّرعية الشهير! وفي سنة 1747 م (1157هـ)، أعلن الأمير محمد قبوله لآراء محمد بن عبد الوهّاب وأفكاره، وأعلن مناصرته له ولهذه الآراء والأفكار؛ وبهذا التحالف بدأت الحركة الوهّابية بالظهور للوجود بشكل دعوة وحُكْم، والتي سُمّيت بالوهّابية تيّمناً بمحمد بن عبد الوهّاب. فقد كان هذا الأخير يدعو لها ويعلِّم الناس أحكامها، وكان محمد بن سعود ينفّذ أحكامها على الناس الذين تحت إمرته وسلطانه!

وكان هذا الاتفاق قد تمّ بشرطيْن: أن تكون السلطة الدينية بيد محمد بن عبد الوهّاب، ويكون إماماً للدّعوى، وأن ترِثه ذرّيته من بعده، والسلطة السياسية بيد محمد بن سعود، وأن لا يعترضه الشيخ فيما يأخذه من الخراج من

5- الورداني، صالح، (مقالة) ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، يونيو 2009.

أهل الدرعيّة. وقد سُمّي بإمام المسلمين، وجعل الدرعيّة دار هجرة لأتباعه[6].

وتحت عنوان تخليص الدين من البدع، والدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة، وتطهير الأمّة الإسلامية من الشرك، أخذ هذا التحالف يسلك خُطاه العملية، حيث شنّ أنصار محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهّاب سلسلةً من الحروب، كانوا يسمّونها «الغزوات»، فهدموا الكثير من القِبب في مكّة المكرّمة، وقضوا على الكثير من المعالم الأثرية الموجودة في المنطقة. كما تمّت مصادرة أموال خصومهم من المسلمين في شبه الجزيرة العربية، وخسِر الكثيرون أرواحهم نتيجة هذه الحروب، التي أخذت بالامتداد، حتى جاورت الدِّرعية من البلدان والقبائل في الدعوة والحكم. وبدأت إمارة محمد بن سعود تتّسع، حتى «وُفِّق» في مدى عشر سنوات إلى أن يُخضع لسلطته وللمذهب الجديد رقعة من الأرض مساحتها نحو ثلاثين ميلاً مربّعاً؛ ولكنه كان اتساعاً عن طريق الدعوة وسلطان الشيخ، و لم يعترضه أحد. حتى أنّ أمير الإحساء الذي أخرج محمد بن عبد الوهّاب من العُيَيْنَة لم يعارض خصمه في هذا التوسع، و لم يحشد قوّاته لمحاربته إلاّ في سنة 1757م. ولكنه هُزم، فاستولى محمد بن سعود على إمارته، وصارت سلطته وسلطة المذهب الجديد تحكم الدّرعية وما جاورها وحتى الإحساء.

لكن، بعد الاصطدام مع أمير الإحساء والاستيلاء على بلاده، وقفت هذه الحركة عند هذا الحدّ، و لم يُعرف عنها أنها توسعت بعد ذلك أو قامت بأيّ نشاط. بل هي ظلّت محصورة في ذلك المكان، حيث شهدت فترة من الركود، بعد إحدى وأربعين سنة من بدئها؛ أي من سنة 1747م إلى سنة 1788م. في سنة 1765م توفّي محمد بن سعود، وخلفه على مشيخة عَنْزَة ابنه عبد العزيز، فقام بعد والده بحكم الرقعة التي تحت يده، ولكنه لم يقم بأيّ نشاط ولا بأيّ

6 – ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/1/7.

توسع، فظلّت الحركة في سُباتها، وظلّ الركود مخيّماً عليها، ولم يعد يُسمع عنها شيء، ولم يعد أحد من جيرانها يذكرها أو يتخوّف من غزوها. وبعد إحدى وثلاثين سنة من وقوفها وركود حركتها، أي من سنة 1757م إلى سنة 1787م، عادت وظهرت، ولكن بطريقة جديدة لنشر المذهب، وذلك عن طريق الحرب، حيث أسّس عبد العزيز بن سعود إمارة آل سعود، ووافقه الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. وبعد هذا الإتفاق أخذت هذه الدعوة تنشط في الفتح والتوسع[7].

ففي سنة 1787م تحرّك عبد العزيز لتأسيس بيت إمارة، وإيجاد نظام وراثة الحكم، أو ما يُسمّى بولاية العهد: بأن يثبّت ابنه سعود خليفة له. فقد احتشد الناس من حول الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. وفي هذا الحشد جعل عبد العزيز حقّ الإمارة في بيته، وحقّ خلافته في الإمارة لأولاده، وأعلن تثبيت ابنه سعود خليفة له، فوافقه على ذلك الجميع، وعلى رأسهم محمد بن عبد الوهّاب، وأقرّوا الأمر. وبذلك يكون عبد العزيز قد وسم تأسيس دولته بالطابع القبلي، حيث جعل الخلافة في السلطة الدينية في بيت محمد بن عبد الوهّاب وخلافة الحكم في آل سعود!

هذه الحركة أخذت تنشط وبشكل مفاجئ في الفتح والتوسع، وصارت تقوم بحروب لنشر المذهب الوهّابي. فقد قام عبد العزيز في سنة 1788م بتجهيز حملة عسكرية ضخمة لتوسيع إمارته، فهاجم الكويت وفتحها واستولى عليها. ثم واصلت الحركة نشاطها في محاولات التوسع إلى الشمال، حتى حاصر عبد العزيز بغداد في محاولة منه للاستيلاء على كربلاء، وعلى قبر الإمام الحسين (ع) لهدمه ومنع زيارته؛ وفي نيسان 1803م، شنّ هجوماً

7- النبهاني، تقي الدين، «كيف هُدمت الخلافة»...

http://www.facebook.com/no4E5wanismailia

على مكّة واحتلّها. وفي ربيع 1804م سقطت المدينة المنوّرة في يديه، فخرّب القباب الضخمة التي تظلّل قبر الرسول (ص)، وجرّدها من جميع النفائس. وبعد أن انتهى من الاستيلاء على الحجاز، سار عبد العزيز نحو الشام، وقارب حمص. وفي سنة 1810م، هاجم دمشق مرّة أخرى، حيث لقي دفاعاً قوياً. لكن، مع محاصرته لدمشق، انطلق نحو الشمال وبسط سلطانه على أكثر أراضي سورية حتى حلب، كما هاجم النجف الأشرف في العراق.

وقد كان معروفاً أن الحركة الوهّابية كانت جزءاً تخطيط إنكليزي شامل لضرب الدولة العثمانية التي كانت في أوجها، وكانت مُسيطرة على أكثر البلاد الإسلامية، وتحاشياً لامتداد هذه الدولة والحدّ من توسعها، وفي وقتٍ كانت المخاوف الإستعمارية الغربية تتزايد من الإسلام كدين وكنظام حكمٍ، وكذلك الخشية من ترسّخه في نفوس المسلمين، وخطر العلماء في حثِّهم المسلمين على التحرّر ورفض الظلم ومقاومته. هذا الواقع شكّل تهديداً جدّياً وعائقاً أمام السياسة الإستعمارية لبريطانيا خصوصاً. من هنا جاءت خطط الإنجليز للبحث عن السبل التي تمكّنهم من القضاء على هذا الخطر، والذي كان قد وصل إلى قلب أوروبا، في محاولة للانتقام من المسلمين واستعادة ماء الوجه من قِبل المستعمرين. فما كان من بريطانيا إلاّ أن نشرت جواسيسها بين المسلمين لزرع البلبلة، وصرف الأنظار عن محاربة العدوّ الحقيقي والمُستعمِر للأراضي العربية (الإنكليز)، عن طريق إثارة الحروب المذهبية داخل أراضي الدولة العثمانية، وذلك من خلال الاصطدام بين المذاهب المختلفة، لإيقاع الفتنة بين المسلمين، ولإجبارهم على ترك ما يعتنقون من آراء مغايرة لآراء المذهب الوهّابي، وفرض اعتناقه بقوّة السيف، تمهيداً لغزو البلدان الإسلامية والسيطرة عليها.

كانت هذه الخطّة قد انتهت بإيجاد بريطانيا ضالّتها في محمد بن عبد الوهّاب، الذي جنّدته لهذه الغاية، وذلك عبر اختراع مذهب جديد يتشدّد

ضدّ كلّ الفئات المسلمة، في سبيل القضاء على الدولة العثمانية التي كانت تبجّل أهل البيت (ع) وتؤمن بالتصوّف، والذي لم يكن محمد بن عبد الوهّاب يؤمن بهم. وبذلك تكون بريطانيا قد وضعت المسمار الأول في نعش الدولة العثمانية، وإضعاف الأمّة الإسلامية في سبيل تمزيق المسلمين وإبعادهم عن عقيدتهم، وزرع الفتن بينهم. وبعد أن استمالت محمد بن سعود إليها، أتت بالاتفاق الذي تمّ بين محمد بن عبد الوهّاب ومحمد بن سعود على نشر الدعوة المزعومة، حيث ارتأت المصلحة المتبادلة أن يتم هذا الاتفاق، في وقتٍ كانت فيه الدعوة بحاجة للقوّة والسيف، وخاصة بعد الرفض الذي تعرّضت له من معظم القبائل العربية. والسعوديون كانوا بحاجة إلى غطاء ديني للسيطرة والتوسع في الحكم والبلاد[8].

ومن أجل تمكين هذه الحركة الوهّابية المشبوهة من بسط سيطرتها، تدفقت المساعدات البريطانية المالية والإمدادات العسكرية، من عتادٍ وأسلحة، لشنّ الحروب و«الفتوحات»، على آل سعود. ولم يكن هذا الأمرً بالخفي حينها؛ بل إن بريطانيا ساهمت في مُضيّ الدعوة الوهّابية في حروبها، حتى تمّكن جيش مصر الذي أرسله محمد علي، بقيادة ابنه إبراهيم باشا، من فتح المدينة وأجبر الوهّابيين على العودة إلى الدّرعية[9].

وكانت نتيجة هذه الحروب قيام الدولة السعودية الأولى، من دمشق شمالاً إلى عمّان جنوباً وعاصمتها الدّرعية. إلا أنّها دُمّرت بعد محاصرتها من قِبل القوّات المصرية، بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي باشا. ولكن، في أوائل القرن العشرين، عادت وتأسست الدولة السعودية من جديد على يد عبد العزيز بن سعود (1903 – 1953)، مؤسّس المملكة العربية السعودية[10].

8– مذكّرات مستر همفر (تاريخ الوهّابية) www.alseraj.net

9– النبهاني، مرجع سابق.

10– ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/1/7.

إذاً، في أواخر عهد محمد علي باشا، وعلى إثر هزيمته في حربه مع العثمانيين، بفضل التدخل الأوروبي لصالح الأستانة، تراجعت مصر عن كلّ ما سيطرت عليه. وسرعان ما تمكّنت الوهّابية من إعادة تنظيم صفوفها، وتحقيق انتشار واسع لها في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية، ما أدّى إلى انتشار «الدعوة» فيها. وبقيام المملكة العربية السعودية في العام 1932م، مُنح رجال الدين الوهّابيون اليد الطولى في إدارة الشؤون الدينية والتعليمية، حيث تمّ تكريس الوهّابية السلفية في المناهج التربوية[11].

وما كانت هذه الحركة السلفية الوهّابية بالجديدة. بل هي كانت إحياءً لأفكار الحنابلة التي شاعت في القرن الرابع الهجري، والذين كانوا يصفون أنفسهم بالسلفيين، وأنّ آراءهم تنتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل، حيث تجدّدت هذه الحركة مرّة ثانية في القرن السابع الهجري على يد ابن تيميّة. حتى جاء محمد بن عبد الوهّاب وحذا حذو ابن تيميّة، فأحيا ما كان عمِل عليه، ودعا إلى السلفية من جديد[12].

إلاّ أنّ الحركة السلفية تعرّضت فيما بعد للانقسام الفكري والتنظيمي، ونشأت فيها تيّارات عدّة، ومنها التيار السلفي «الجهادي»، بسبب الاختلاف حول بعض القضايا الفكرية والفقهية والسياسية. ومع نشأة السلفية «الجهادية»، تكون السلفية قد اتخذت منحىً جديداً، وخرجت عن خطّها التقليدي، حيث تمكنت من الانتقال إلى بلدان أخرى، وتأثّر بها بعض علماء مصر والشام والعراق وغيرها من البلدان القريبة، وامتدّت في الزمان والمكان[13].

11- م.س.

12- مكرم، ياسر، جريدة الصحيفة1976/10/31، [(facefook)].

13- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2013/11/1.

ثانياً: أفكار السلفية الوهّابية

اقترنت المدرسة السلفية بالوهّابية، نسبةً إلى صاحب هذه الدّعوة، محمد بن عبد الوهّاب. وهي كانت ترعرعت في حضن الدولة السعودية الجديدة النشأة، في ظلّ الاتفاق الذي تمّ بين رجل الدين محمد بن عبد الوهّاب، وبين رجل السياسة محمد بن سعود، كما سبق وذكرنا. لكن الوهّابية مصطلح يرفضه العديد من العلماء الذين ينتمون لهذه المدرسة، حيث يزعمون أنه استُخدم من قِبل الأعداء من باب تشويه الدعوة السلفية. ففي خطاب ألقاه الملك عبد العزيز، خلال حفل أُقيم بمكّة المكرّمة، بتاريخ 1959/5/11، قال: «يُسمّوننا (الوهّابيين) باعتبار أننا أصحاب مذهب خاص.. وهذا خطأ فاحش، نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثّها أهل الأغراض. نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة، و لم يأتِ محمد بن عبد الوهّاب بالجديد؛ فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنّة رسوله وما كان عليه السلف الصالح...»[14].

إذاً، هذه الدّعوة السلفية، بحسب مزاعم أصحابها، تسير على خطى السلف الصالح، في اتّباع القرآن والسنّة مباشرة، دون الرجوع إلى المذاهب الفقهية السنّية الأربعة، معتمدةً على أقوال السلف الصالح، وإجماع العلماء، مع الاستشهاد بأقوال الأئمّة الأربعة. ففي زمن انتشرت فيه البدع والممارسات الغريبة عن الإسلام، «انتفض» شيخ الوهّابية على كلّ ما كان سائداً من ممارسات أوقعت أصحابها في الشرك، الذي يناقض توحيد الأنبياء والمرسلين، محارباً البدع في الدين التي شوّهت الإسلام، وأظهرته على أنه دين طقوس وخرافة؛ وطبعاً كلّ هذا حسب زعمهم. وقد جاء محمد بن عبد

14- موقع الجزيرة نت، 2014/2/19.

الوهّاب بأفكار غريبة، مفاجئاً الجميع، كفكرة الاستواء والتجسيم والمكانية التي تتعلق بصفات الله تعالى.. وفكرة إزالة الأضرحة والمقامات، ورفض التوسّل بالأولياء، واعتبار ذلك صورة من صور الشرك والضلال؛ وكذلك فكرة مقاومة العادات والأعراف السائدة في واقع المسلمين، مثل الموالد والاحتفالات بالمناسبات الدينية والنذور للمساجد، حيث تبنّى محمد بن عبد الوهّاب أفكاراً كان قد أعلنها ابن تيميّة من قبل، والذي بسببها تصدّى له العلماء والحكّام في حينه، لينتهي الأمر بحبسه وموته في السجن.

لقد جاءت المزاعم السلفية في سبيل محاربة تلك البدع التي أخرجت الدين عن إطاره الصحيح، فظهر شيخها مُنصّباً نفسه ولياً على المسلمين، ومخلّصاً للأمّة من هذه البدع. لكن، سؤالٌ يطرح نفسه هنا: ما هي البدعة؟ ومن أتى بها؟ وكيف أُدخلت إلى الإسلام؟ البدعة في اللغة: هي الشيء المُحدَث على غير سابق مثال. وفي الاصطلاح الشرعي، لها عدّة تعريفات متقاربة، لعلّ أقربها إلى الصواب أنها «إدخال ما ليس من الدين فيه أو إخراجه منه»؛ وهذا ما لا يُنكر حُرمته أحدٌ من المسلمين، لأنّ ذلك من مختصّات الله سبحانه وتعالى، حين حذّر: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى: 21]؛ وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: 116]، وهذا الأمر سارٍ على نبيّه محمد (ص) أيضاً، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقّة: 44 – 46]؛ إضافة إلى رواية تبيّن حرمة الابتداع في الدين «كلّ بدعةٍ ضلالة وكلّ ضلالةٍ في النّار»، وهي مرويّة من طُرق الفريقين[15].

15– الخشن، حسين أحمد، العقل التكفيري، المركز الإسلامي الثقافي، مجمع الإمامين الحسنين (ع)، بيروت 2013، ص 259.

وفي الوقت الذي يتّهم فيه أتباع السلفية بعض المسلمين بإدخال البدع على الدين، نجدهم أوّل من أدخلوا البدع. فالتجسيم فكرة غريبة عن الإسلام، مع تأكيد القرآن الكريم على أنّ الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. ومع ذلك تصرّ السلفية بأنّ الله تعالى جسمٌ له عينٌ ويدٌ ورجل، وما إلى ذلك من الأعضاء التي تمكّنه من الجلوس والاستواء والانتقال والصعود والنزول، والعياذ بالله. فمشايخ الوهّابية (وأسلافهم) ينسبون لله تعالى كلّ هذه الصفات، كابن تيميّة ومحمد بن عبد الوهّاب وابن باز وابن عثيمين، ولهم أقوال كثيرة في هذا الصدد[16]. لكن سنكتفي بآراء ابن تيميّة، أستاذهم ومعلّمهم، الذي يقول: «وقد يُراد بالجسم ما يُشار إليه، أو ما يُرى، أو ما تقوم به الصفات. والله تعالى يُرى في الآخرة، وتقوم به الصفات، ويشير إليه الناس عند الدعاء بأيديهم وقلوبهم ووجوههم وأعينهم»؛ ويزعم: «وأما القول الثالث ـ وهو القول الثابت عن أئمة السنّة المحضة. كالإمام أحمد وذويه ـ فلا يُطلقون لفظ الجسم لا نفياً ولا إثباتاً، لوجهين أحدهما: إنّه ليس مأثوراً لا في كتاب ولا سنّة، ولا عن أحدٍ من الصحابة والتابعين بإحسان، ولا غيرهم من أئمّة المسلمين، فصار من البدع المذمومة». كما يزعم: «وليس في كتاب الله، ولا سنّة رسوله، ولا أحدٌ من سلف الأمّة وأئمّتها يرى أنه ليس بجسم، وأنّ صفاته ليست أعراضاً»[17].

وعلى هذا يردّ «البيهقي» في كتابه «الأسماء والصفات»، بالقول: «... إنّه سبحانه ليس في مكان، بالحديث النبوي التالي: قال (ص): «أنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء». فإذا لم يكن فوقه شيء

16- المليجي، سامي قاسم أمين، الوهّابية، مكتبة مدبولي، ط2، (2005)، القاهرة، ص49 ـ 58.

17- السبحاني، جعفر، ابن تيمية: فكراً ومنهجاً، دار الإمام الصادق (ع)، بيروت، 25 صفر 1432هـ، ص 33.

ولا دونه شيء لم يكن في مكان»[18].

فيما يقول الإمام علي بن أبي طالب (ع)، في إحدى خطبه: «ما وجده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهّمه». ويقول (ع) أيضاً: «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه... مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمُزايلة»[19].

وللإمام جعفرالصادق(ع) قولٌ بليغ في ذلك، رواه عنه الشيري في الرسالة: «من زعم أنّ الله في شيء، أو على شيء، أو من شيء فقد أشرك، إذ لو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان من شيء لكان مُحدَثاً (أي مخلوقاً). فالقول في أنّ الله سبحانه وتعالى جسم يوسم صاحبه بالكفر، لأنّه بذلك يكون قد كذّب القرآن، فقد قال الله تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ [الشورى: 11]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [التوحيد: 4]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿... هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً...﴾[مريم: 65]؛ ومن قال بغير ذلك يكون قد ردّ على كلام الله، وبالتالي خرج عن إجماع الأمّة الإسلامية التي حتّمت كفر من قال بالجهة والتجسيم لله تعالى[20].

وعلى الرغم من النصوص الصريحة في القرآن والسنّة على انتفاء التجسيم لله سبحانه وتعالى، إلاّ أنّ أتباع السلفية يصرّون على المجاهرة بهذه الأفكار، مُدخلين إيّاها إلى الإسلام، مع تأويلهم القرآن تأويلاً كاذباً؛ فهم بذلك

18– م.س، ص 34.

19– م.س، ص 40 - 41.

20– االمليجي، مرجع سابق، ص 62 - 63.

يكونون أوّل من أتوا بالبدع، وأدخلوها إلى الإسلام. فعقيدة التجسيم التي قالوا بها هي نفسها التي يقول بها اليهود في الله تعالى، وما وصفوه به من نقائص وتشبيه وتجسيم وحلول وتحيّز في المكان وما إلى ذلك. ففي نسخة التوراة المُحرّفة، والتي هي أساس «دين اليهود» الذين يسمّونه سفر الملوك، الإصحاح الأول: الرقم 19–20، ورد: «وقال فاسمع إذاً كلام الربّ، قد رأيت الربّ جالساً على كرسيّه وكلّ جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن شماله»؛ بالإضافة إلى الكثير من الأقوال التي أوردوها في توراتهم المزعومة، والتي ينسبون فيها الجلوس لله سبحانه وتعالى، تعالى الله عمّا يصفون[21].

كما كان للسلفية نظرة خاصة بالتوحيد، كمفهوم متميّز وخارج عن المفهوم الذي اتفق عليه العلماء المسلمون. فالتوحيد هو الأساس الذي ينطلق منه الإسلام، بشهادة لا إله إلاّ الله، وبها يتميّز المسلم عن غيره من المتدينين بغير الإسلام. فالتوحيد في وجه الشرك الذي يُخرج صاحبه من الإسلام؛ والشرك نظير الكفر، والتوحيد في الجهة المقابلة لهما، ولا يمكن الجمع بينهما، لما يشكّلان من نقيضين له. ولكن الشرك له مراتب ودرجات، وليس كلّ شرك يُخرج من الملّة. فهناك شرك في الألوهية، وآخر في الربوبية، وثالث في الخالقية، ورابع في العبودية، وخامس في الطاعة، والسادس في النيّة. والشرك في الأصناف الأربعة الأولى منها، أي في الألوهية والربوبية والخالقية والعبودية، تناقض الإسلام كلّياً، وهي الكفر بعينه، لأنها تحتّم وجود إله أو رب أو خالق أو معبود آخر مع الله. أما الشرك الخامس، فهو شرك الطاعة، كطاعة الشيطان والهوى، وهذا الشرك لا يُخرج من الإسلام، كما يشهد على ذلك الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

21– كتاب الوهّابية في العراء، تحقيق جماعة من الباحثين، ص 13، شبكة الجزائر، www.aljerian2.com أو موقع غوغل بلاي: https//play.google.com

[يوسف: 106]. وأمّا الصنف السادس، فهو الشرك في النيّة (أي الرياء)، وهو إسلام ظاهري، حيث يقع فيه الكثير من المسلمين. وقد جاءت نصوص عديدة تحكم على بعض المسلمين بأنهم مشركون، أو أنّ بعض أعمالهم شركيّة. ففي الحديث عن رسول الله (ص): «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجّال؟ قلنا بلى، فقال الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلّي فَيَزين صلاته لما يرى من نظر رجل»؛ إضافة إلى كثير من الروايات حول الشرك الذي لا يخرج به الإنسان عن دائرة الدين والإجتماع الإسلامي، وإلاّ لو حُكم بخروجه عن الإسلام، فلن يسلم أحدٌ من المسلمين من ذلك[22].

وفي مسألة التوحيد عند السلفية، يقول الشيخ محمد أبو زهرة[23]: «ينظر السلفيون إلى الوحدانية على أنها الأساس الأول للإسلام، وذلك حقٌ لا مجال فيه للرّيب. ويفسّرون معنى الوحدانية تفسيراً في جملته يتفق وما يقرّره المسلمون أجمعون، ولكن يفرضون أموراً تنافي الوحدانية ولا يقرّهم جمهور المسلمين عليها؛ مثلاً يعتقدون أن التوسّل إلى الله بأحدٍ من عباده الذين مضوا إلى ربّهم مُنافٍ للوحدانية، وأنّ زيارة الروضة الشريفة مُستقبِلاً لها مُنافٍ للوحدانية، وأنّ إقامة شعائر حول الروضة الشريفة مُنافٍ لذلك، وأنّ التوجّه بالدعاء إلى الله تعالى مُستقبلاً ضريح نبيّ أو وليّ مُنافٍ للوحدانية... ويعتقدون أنّ ذلك مذهب بدعٍ يقدح في معنى التوحيد»[24].

وفي هذا الخصوص يقول ابن تيميّة: «... وأخرجوا من التوحيد ما هو

22- الخشن، العقل التكفيري، مرجع سابق، ص 42 /43/ 44.

23- كاتب مصري توفّي عام 1974.

24- الإمام محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ج1، ص 190، ط1987م، دار الفكر العربي، مأخوذ من جهاد بن عبدالإله الخنيزي، السلفية والشيعة، ص 126 ـ 127، ط1، 2012، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان.

منه، كتوحيد الألوهية، وإثبات حقائق أسماء الله وصفاته. و لم يعرفوا من التوحيد إلاّ توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأنّ الله خالق كلّ شيء وربّه. وهذا التوحيد كان يقرّ به المشركون»[25].

فالنظرية السلفية تفسّر التوحيد على أنه ينطلق من تفسير كلمة الله أو الإله، حيث أنّ المسلم ليس هو الذي يشهد بأن لا إله إلاّ الله فحسب، ولا يكفي أن يعترف بعدم وجود شريك للخالق لكي يكون موحّداً. بل عليه ألاّ يمارس العبادة إلاّ لله وحده. فبعد أن كان الشرك هو الاعتقاد بوجود شريك لله تعالى، وليس مجرّد طاعة لغير الله، كطاعة الشيطان الذي يُعتبر ذنباً يغفره الله سبحانه وتعالى، فإن العبادة، من دعاء ونذر وقسم واستغاثة وخوف ورجاء وطلب الشفاعة، وما إلى ذلك إلى غير الله، من الأنبياء والأئمّة والأولياء الصالحين، اعتبرها محمد بن عبد الوهّاب، متأسياً بابن تيميّة، بمثابة نوع من العبادة التي ترقى إلى مستوى الشرك الأكبر بالله تعالى، والتي تُخرج صاحبها من الإسلام!

وبالتالي، فإنّ التوحيد عند السلفيين هو على ثلاثة أقسام: توحيد الرّبوبية، توحيد الألوهية، توحيد الأسماء والصفات. وتوحيد الألوهية هو توحيد الله تعالى بحصر العبادة له وحده، والتنّصل من مثل كلّ تلك الممارسات لغير الله. أما توحيد الرّبوبية، فهو الايمان بالخالق الواحد.

وإذا عدنا إلى الممارسات التي قام بها المسلمون، واتّهِموا على أنهم أدخلوا من خلالها البدع على الإسلام، والتي اعتبرها أتباع السلفية بدعاً، مثل: زيارة القبور، التوسّل بالأنبياء والأولياء الصالحين، وإقامة الأضرحة والقِباب، فإنّ تلك الممارسات التي كانت ـ وما زالت ـ منتشرة في البلاد الإسلامية،

25– منهاج ابن تيمية 289/3، مؤسسة قرطبة، ط1، 1406هـ، تحقيق محمد رشاد سالم، مأخوذ من النزعة التكفيرية في فكر الوهابية، ص 30 ـ 31، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة.

وضعت المسلمين المواظبين عليها، خارج دائرة الإسلام، من قِبل محمد بن عبد الوهّاب، والذي اعتبرها ارتداداً للمسلمين عن الإسلام، والعودة إلى الشرك وعبادة الأوثان!

وفي وصف من يقوم بمثل تلك الممارسات، يقول محمد بن عبد الوهّاب: « إنّي لا أعتقد كفر من كان عند الله مسلماً، ولا إسلام من كان عنده كافراً. بل أعتقد من كان عنده كافراً كافراً. وما صحّ عن العلماء من أنه لا يكفّر أهل القبلة، فمحمولٌ على من لم يكن بدعته مُكفّرة، لأنّهم اتفقت كلمتهم على تكفير من كانت بدعته مُكفّرة. ولا شكّ أن تكذيب رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيما ثبت عنه قطعاً كُفر، والجهل في مثل ذلك ليس بعذر»[26].

لقد واجه محمد بن عبد الوهّاب كلّ من يقوم بمثل هذه الممارسات بسيف التكفير. وهو زعم أنّ زيارة قبر النبي محمّد (ص) والتوسّل به، وبالأنبياء والأولياء والصالحين، وزيارة قبورهم للتبرّك شرك. كما زعم أنّ نداء النبي (ص) عند التوسّل به شرك، وكذا نداء غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين عند التوسّل بهم شرك، وأنّ من أسند شيئاً لغير الله، ولو على سبيل المجاز العقلي، يكون مُشركاً، وبأنّ هذه الأمور من البدع التي أدخلت إلى الإسلام، بالرغم من الأحاديث الكثيرة التي تحثّ على مثل تلك الأمور، والتي هي سابقة على زمن محمد بن عبد الوهّاب؛ بل على العكس، كان رسول الإسلام نفسه من يأمر بها، لما لها من أجرٍ وثواب. ومن هذه الأحاديث، قوله (ص): «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي» (سنن الدار القطني 2: 278/ح 293). وقال (ص) أيضاً: «من زارني مُحتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة» (السنن الكبرى / البيهقي 5: 245). ويقول الإمام مالك: «إذا أراد

26- غربة الإسلام والمسلمين (مقالة)، 2003/2/11.

الرجل أن يأتي قبر النبي، فليستدبر القبلة ويستقبل النبي (ص) ويصلّي عليه ويدعو» (رؤوس المسائل/النووي، وانظر وفاء الوفاء: 1377). كما يُنقل حديث لعبد الله بن أحمد بن حنبل يقول فيه: «سألت أبي عن الرجل يمسّ منبر الرسول (ص) ويتبرّك بمسّه ويقبّله، ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى.. فقال: لا بأس به» (وفاء الوفاء: 1404)[27].

أما بالنسبة للتوسّل بالأنبياء، فهناك دلالة قرآنية على جواز اتخاذه وسيلة، تكون بين العبد وربّه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾[المائدة:35]، حسب تفسير مجمع البيان/ ج 2 /ص 452. وفي هذه الآية دلالة واضحة على استحباب استخدام الوسيلة لدى الله سبحانه، وأنه لا يقبل الوسيلة إلاّ من عباده الصالحين. كما صدر التوسّل من النبي (ص) نفسه، حيث جاء في الحديث المنقول: «عن ابن حسنويه عن ابن مسعود عبدالله: «إنّ علي بن أبي طالب (ع) كان يصلّي ويقول في سجوده وركوعه: اللهمّ بحقّ محمّد عبدك إغفر للخاطئين من شيعتي، قال: يقول الراوي خرجت حتى أخبر رسول الله (ص) فرأيته وهو يصلّي ويقول: «اللهمّ بحقّ علي بن أبي طالب عبدك إغفر للخاطئين من أمّتي»[28].

وهناك الكثير من الأحاديث التي تُظهر استحباب التوسّل والزيارة للأنبياء والأولياء، نذكر منها ما جاء في «المستوعب» ـ قال الساوي الحنبلي في باب زيارة قبر النبي (ص): «ثم يأتي الزائر حائط القبر، فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره. ثم ذكر كيفيّة السلام والدعاء، وفيه: اللهمّ إنك قلت في كتابك لنبيّك (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم

27- موقع مركز الغدير، 1994.

28- الأبطحي، مرتضى، الشيعة في أحاديث الفريقين، السيد ص ص 227 ـ 316، «مختصر».

جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول)، وإني قد أتيت نبيّك مُستغفراً. اللهمّ إني أتوجّه إليك بنبيّك (ص)، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته...»[29].

ويقول أبو علي الخلال شيخ الحنابلة: «ما همّني أمر، قصدت قبر موسى بن جعفر، فتوسّلت به، إلاّ سهّل الله تعالى لي ما أُحبّ». (تاريخ بغداد 1: 120). وورد في كتب الشيعة أيضاًعن جواز التوسّل بالأنبياء، ما جاء في الصحيفة السجّادية المأثورة، عن الإمام السجّاد علي بن الحسين (ع)، حيث قال: «وخلّصني ياربّ بحقّ محمّد وآل محمّد من كلّ غمٍّ» (الدعاء رقم30)[30].

هذا في الوقت الذي تُعتبر فيه شهادة لا إله إلاّ الله مُنجّية من غضب الله تعالى وسخطه، وموجبةً لرضا الرحمن، حيث ينقل ابن حجر في كتابه (صواعق مُحرقة لردّ الزندقة)، ما يلي: يُنقل عن الإمام مالك حديث سلسلة الذهب، يذكر الإمام الرضا عن الإمام الكاظم عن أبيه عن الإمام الصادق عن الإمام الباقر، وهكذا، حديث قدسي: «من قال كلمة لا إله إلاّ الله حصني، فمن قالها دخل في حصني،ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي». وهذه الرواية يرويها الإمام الرضا بسلسة سند آبائه؛ وهنا يعلّق الإمام أحمد على هذا السند، فيقول: «والله لو تُلي هذا الإسناد على مجنون لبُرِئ من جِنّته». كما يضيف ابن حجر بأن شهادة لا إله إلاّ الله تشكّل بطاقة تُعرب عن الإنتماء إلى المدرسة المحمّدية، وهي ضمانة حقيقية تحميه في الدنيا، كما تحميه في الآخرة. ومفارقة هذه الشهادة كما التصريح بها، تُخرج صاحبها من الأصل

29- موقع مركز الغدير، مرجع سابق.

30- م.س.

ألا وهو لا إله إلاّ الله، وهو ما صرّح به رسول الإسلام محمد (ص)[31].

ومع وجود الآيات القرآنية و الأحاديث الصحيحة الكثيرة الواردة في هذا الشأن، والتي تؤكّد جواز التوسّل بالأنبياء والأولياء الصالحين، إلاّ أن التعنّت ثابت في سياسة التكفير التي تمارسها السلفية الوهّابية، والتي حكمت بها على أكثر المسلمين بالكفر، ضاربة كلّ تلك القرائن القرآنية والأحاديث النبوية المُثبتة لدى أهل السنّة والشيعة، عرض الحائط. بل على العكس، فقد بقيت السلفية مثابرة على مخالفتها؛ فالنطق بالشهادة لم يعد كافياً حتى يكون الشخص مسلماً ويُحقن دمه، ولو أقرّ وآمن بأن لا إله إلاّ الله، وأن لا خالق للخلق سواه، وأن لا معبود غيره؛ وهذا ما يترجمه أتباع الوهّابية التكفيرية اليوم في سوريا والعراق واليمن وليبيا وغيرها.

ثالثاً: سمات الحركة السلفية

من مبدأ العودة إلى منابع الإسلام الأصيل، إنطلقت الحركة السلفية زاعمةً أنها سوف تعيد للإسلام لونه البرّاق، الخالي من الشوائب والبدع والممارسات التي أساءت له، من خلال الاقتداء حصراً بالسلف الصالح. لكن هذا يعني حكماً العودة إلى التاريخ الأوّل للإسلام؛ أي إلى زمن رسول الإسلام محمد (ص). ذلك الزمن الذي أعاد الإنسانية إلى أهلها. فبدل الجهل حثّ على العلم، وعلى العدل بدل الظلم، وعلى الرحمة عوضاً عن القسوة البدوية التي كانت منتشرة في ذلك الزمن. وإذا ما أريد الرجوع إلى التاريخ والاستفادة منه، لا بدّ من دراسة الوقائع والأحداث التي حصلت في تلك المرحلة.

أما عودة السلفية للتاريخ، أي إلى منبع الإسلام، فهي لم تعد إلى إسلام

31- مؤتمر سماحة الإسلام وفتنة التكفير، (كتاب) دار الأمير، بيروت، 2013، ص22/18.

محمد (ص)، بل إلى إسلام أحمد بن حنبل وابن تيميّة. وهي بذلك حدّدت أُطراً لا يمكن الخروج عنها، واضعةً العوائق أمام أيّة محاولة للتحديث والتغيير. إن إغلاق أيّ باب من أبواب الاجتهاد يعني الوقوف الزمني لتلك اللحظة، دون الأخذ بعين الاعتبار ما هو مختلف بين الماضي والحاضر والمستقبل.

فالتاريخ المقصود ليس التاريخ الأوّل للإسلام، بل هو تاريخ محصور في فترة زمنية محدودة. وهو تاريخ أشخاص، وليس تاريخ أحداث. والاستفادة من التاريخ، مُجرّداً عن واقعه، معدومة الفائدة. وعدم التمييز بين نسبية الواقع ومطلقية المثال، أمر يعيق العملية الإبداعية، ما يؤدّي إلى التقوقع في الجهل وعدم تجديد الأفكار لتصبح مؤاتية للواقع، مراعيةً الزمان والمكان. إن طلب العودة إلى التاريخ يجب أن يكون عودة «إلى الإسلام الأوّل، ولكن مقروءً بعيون جديدة. أبستمولوجياً، يجب أن نعود إلى الإسلام الأوّل، لكي نجري عليه قراءة تفكيكية، ولا نقرأه من خلال عيون الذهبي أو ابن تيميّة أو حتى عيون السيوطي، أو أيّ عيون متأخرة عنه ثمانية قرون بعد تكوّن الإسلام كما نعرف اليوم»[32].

إن حصر دراسة وانتهاج التاريخ بالأشخاص يعني انتهاج مسار ذاتي بعيد عن الموضوعية، وبعيد عن النسبية، وغارق في المثالية. فكلّ صاحب فكرة يدّعي صوابيتها، وأنّه مالك الحقيقة المطلقة، والتي في أكثر الحالات من الصعب تحقيقها في الواقع. وإن لم يكن الواقع هو الأساس في تكوين أيّة نظرية وتكييفها مع هذا الواقع، فلا سبيل لإنجاحها. بل بالعكس، ستفرض حالة من الجمود وعدم مواكبة التطوّر الحاصل عبر الأزمان.

وهذا ما جعل الحركة أو الدعوة السلفية تتناقض نظرياً وعملياً مع الإسلام

32- اليسّاوي، شاكر، السلفية: نشأتها وفكرها، مجلة الطريق، العدد 3، 2000، ص 45.

المحمّدي الأصيل، غارقةً في مستنقع من الجهل، بعيدةً عن ساحة العقل، مُعطّلةً عملية التفكير، ومخالفةً بذلك القرآن الكريم الذي يحثّ على التفكير والتدبّر، حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 55]؛ إضافة إلى عبارات قرآنية كثيرة تدعو الإنسان إلى التفكير: «يتدبّرون...، يعقلون...، يتفكّرون». كما حثّت الأحاديث النبوية الشريفة على أن لا يؤخذ بالروايات دون النظر والتحقّق والتأمل فيها: «عقل الخبر رعاية لا عقل رواية.. فرواة العلم كثيرون ورُعاته قليلون».

والسلفيون بتبنّيهم مذهب الحنابلة المعتمد على أسلوب النقل لا العقل، لا يأخذون بالرأي ولا بالقياس، مُستبعدين العقل والمنطق، مبرّرين ذلك بعدم حاجة المسلمين إلى الإجتهاد. فالسلف الصالح ترك لهم ما يكفيهم من ميراث ديني؛ وبذلك تكون السلفية قد وضعت العوائق أمام «الممارسة الإبداعية» بشكل كامل أو جزئي، واضعةً أمام العقل بعض الأقفال الذهنية»، ومُكرّسة «عقلية الإذعان « التي تتأتّى عن طريق «الإجابة الصحيحة» الثابتة في «العلب الجاهزة» المرصوصة في رفوف الباعة لدى «الرموز الدينية السلفية»، والتي تحدّ من قدّرة الخيال لدى الأذهان السلفية، ممّا يفقدها المرونة الذهنية التي تمكّن الإنسان من توليد أكبر قدر ممكن من الأفكار. فبدل أن يكون هذا العقل «تقاربي توليدي»، يكون مجرّد عقل «تقاربي إسترجاعي» منمّط في أُطر محدّدة بعيدة عن الإبداع والتفكير[33].

كما اعتمدت السلفية السياسة الإنتقائية، والتي شكّلت السّمة الرئيسية لها، في اختيار الأحاديث النبوية، وترك وتضعيف ما كان مُخالفاً لقناعاتها، حتى وإن كانت قوية الإسناد. ولقد جاء ذلك في قول الحافظ الذهبي، مخاطباً

33– البريدي، عبد الله، السلفية الشيعية والسنّية (بحث في تأثيرها على الاندماج الاجتماعي)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2013، ص 64 - 65.

ابن تيميّة: «يا ليت أحاديث الصحيحين تسْلم منك، بل في كلّ وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو التأويل والإنكار»[34].

ولم يقتصر الأمر لدى السلفية على الانتقائية. بل ظهر التزوير الذي بالغت السلفية في انتهاجه، حيث حذفت وغيّرت ما كان يُخالف منهجها من كتب التراث الإسلامي، مثل ما فعل أصحابها في كتاب الأذكار للنووي، وحاشية إبن عابدين الحنفي، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين، وحذف الجزء العاشر في بعض النسخ من الفتاوى لابن تيميّة، وهو الخاصّ بالصوفية[35].

كما تميّزت الدعوة السلفية بالإفراط في تكفير وتضليل كلّ من هو على اختلاف معها، وخاصّة الشيعة الإمامية، وأكثر الصوفية؛ بالإضافة إلى تخطئة أئمّة السنّة في العقيدة والتبديع في بعض الأحيان، والإخراج من دائرة السنّة في أحيان أخرى[36].

لقد تمّ اعتماد العنف كأسلوب رئيسي للسلفية في التعاطي مع المواضيع العقائدية بدل الأسلوب الإقناعي، في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، في مخالفة واضحة لأمر الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، وقول النبيّ (ص) فيما رواه مسلم: «بشّروا ولا تنفّروا، يسّروا ولا تعسّروا»؛ وكذلك السلوك الذي سار عليه الرسول الأكرم(ص)، والذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾*. وقد مارس

34- صالح، نبيل علي، السلفية الدينية في المجال التاريخي الإسلامي، دراسة مقارنة، المنهاج، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، 2007، ص 254.

35- موقع مدوّنة السلفية والسلفيين، 2012/7/25.

36- م.س.

بعض أتباع السلفية العنف على كلّ من يخالف عقيدتهم، حيث كان القتل العشوائي دون التمييز بين المعارضين أو الموافقين، الصغار أو الكبار، العالمين أو الجاهلين بالأمر. فالتفجيرات التي انتشرت في السنوات الأخيرة في البلاد العربية والإسلامية هي خير دليل على السياسة العقيمة التي تنتهجها السلفية في مسيرتها العملية، رافضةً فتح أيّ باب للحوار والتفاوض حول المفاهيم العقائدية. فالعدوّ ليس واحداً، أو فئة معيّنة، بل كلّ من يخالفها في الرأي، فيُحلّ بذلك دمه وعِرضه وماله[37].

كذلك من سمات السلفية مناهضة الديمقراطية بكلّ أشكالها، واعتبارها مناقضة للشريعة، وتحريم الخلاف والاختلاف، ورفض مبدأ الحوار، باعتبار أنّ الفرقة الناجية هي التي من حقّها وحدها أن تنوب عن الدين في تنفيذ الأحكام الشرعية. وقد صدرت أحكام (فتاوى) من قِبل «مفتي السعودية عبد العزيز آل الشيخ»، يعتبر فيها التظاهرات على الظلم والقهر والفساد في بلاد الحرمين، «مبدأ غير إسلامي». وبالرغم من نتائج هذا القمع الذي يؤدّي إلى الانتفاضة على السلطة، فإن السلطة السعودية تقوم باعتقال كلّ من يشارك فيها، وتعرّضه للتعذيب والتنكيل. كما أنّ هناك فتوىً له تحرّم الاتصال بالقنوات الفضائية الخارجية والتعاون معها في نشر ما أسماه أسرار البلاد، واعتباره ضرباً من الخيانة؛ ناهيك عن قمع الحرّيات، لا سيّما حرّية التعبير[38].

لقد عملت السلفية على تكريس الصراعات المذهبية والنزاعات الطائفية، مع عدم تقديرها للاعتبارات الاجتماعية، ولجوئها الدائم إلى السلطة والعنف،

---

* سورة التوبة، الآية 28.

37- شبكة تابناك الإخبارية، 2014/2/14.

38- موقع أون إسلام، 3 .2010/12/onislam

للتأثير على الرأي العام، الأمر الذي جعلها غير قادرة على التجديد على مستوى التعاون والحوار البنّاء بين المسلمين في العالم. كما أنّ الاهتمام بالفروع دون الأصول يؤدّي إلى عدم تلبية حاجات الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر، ومواجهة التحدّيات التي تواجههم في هذه الأيام. إن اعتقاد السلفية أنها تمتلك الحقيقة المطلقة، مع عدم قبولها للآخر، يجعل دعوتها في حالة أزمة حقيقية، الأمر الذي يثير الآراء الأخرى، فتتولّد الصراعات والنزاعات للدفاع، كلٌّ عن عقيدته وأفكاره، ويغلَق باب الحوارات والنقاشات، ويجعل أصحابها منغلقين على ذاتهم، محاربين كلّ أساليب التواصل والتطوّر والتجديد، والغرق في قوقعة التاريخ، دون الاستفادة منه في الحاضر والمستقبل[39].

وبالرغم من بؤس هذا الإعتقاد، إلاّ أنّ الدعوة السلفية بمنهجها العملي، وخاصة اعتمادها على النصّ الحرفي من القرآن والسنّة، فتح الباب أمام «علمائها» للتأويل العشوائي، واختيار الأحاديث النبوّية المفبركة، ما أحدث شرخاً كبيراً في المفهوم الإسلامي الأصيل عند البعض، حيث تراكمت الأخطاء والخطايا باسم الدين. فبعد أن كان الإسلام وسيلة جذب، بات وسيلة لتنفير الناس من الدين، ورسّخ الاعتقاد عند البعض بأنّه دين الإرهاب. فأينما وُجد الإسلام صار يوجد الإرهاب! لقد أعادت الجماعات السلفية المسلمين إلى ما قبل الإسلام؛ أي إلى عصور الجاهلية الأولى، حيث ضربت بالقيم الإسلامية العظيمة عرض الحائط، مُجدّدةً ممارسات هذه الجاهلية، حيث القتل والسبي والجهر بالمعصية على رؤوس الأشهاد، والتمثيل بالجثث، وهتك الأعراض، وأمور عنفية أخرى نهى عنها الإسلام، والتي بالغ السلفيون «الجهاديون» في إتقانها، حتى أصبح الإرهاب موازياً للدين الإسلامي وأتباعه!

39- الخطيب، محمد عوض، الوهابية: فكراً وممارسة، مركز الغدير، ط3، 2011، ص187.

الفصل الثاني

السلفيّة ما بين التقليدية و«الجهادية»

أولاً: تيّارات الحركة السلفية وطروحاتها

شهدت السلفية حالات انقسام خطيرة عُزيت لأسباب عديدة، حيث تباينت أو تناقضت الآراء داخلها حول الكثير من القضايا الفكرية والدينية والاجتماعية. ولعلّ السبب الأبرز الذي أدّى إلى هذا الانقسام، يعود إلى التطوّر الذي شهده التيار السلفي مع مرور الزمن، وتحديداً إلى مدى تأثّره بتداعيات حرب أفغانستان الأولى وحرب العراق؛ إضافة إلى تداعيات الصراع العربي - الإسرائيلي، وخاصّة بعد عقد اتفاقيات أوسلو (1993).

- **أقسام السلفيين على أساس المنهج العقائدي:**

- سلفيون يتّبعون استراتيجية الإذعان ودعم الأنظمة السياسية القائمة.

- سلفيون يميلون إلى أسلوب الدعوة الهادئة لهداية الناس. وهم ينكرون العنف، ويتحمّسون للمشاركة في الأنظمة السياسية السائدة في بلدانهم.

- سلفيون "جهاديون" : ناشطون سياسيون، وأسلوبهم هو العنف. فهم يخوضون نضالات "ثورية" وإرهابية للإنقلاب على الأنظمة بُغية الوصول للحكم. وهؤلاء منعزلون عن المجتمع المسلم المحيط بهم، وينظرون إلى أبنائه على أنهم غير مؤمنين؛ وهم يعيشون في حالة جهل، مثل جماعة التبليغ أو حركة الألباني، الإخوان المسلمون والقاعدة[1].

أما الجماعات السلفية المرتكزة على قاعدة الانفتاح على الآخر، فمن أبرزها:

1- مؤتمر هرتسيليا الصهيوني السنوي (11) - الكابوس الشيعي، ترجمة وإصدار مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية، بيروت (2012)، ص 176.

1 ـ السلفية الاجتهادية التي تعتمد على استقاء روح الشريعة من خلال فهمها للسلف الصالح، والعمل في سبيل الإصلاح والتوفيق بين التقدّم العلمي والتقني الغربي والقِيم الدينية. وهي تميّزت بقلّة أتباعها، أمثال محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، وعلماء آخرون خلطوا أو ـ يخلطون حالياً ـ بين الآراء المتطرّفة والمقارنات المألوفة، كالشيخ المصري يوسف القرضاوي الموجود في قطر، والشيخ محمد الغزالي (1917 – 1996).

2ـ السلفية النصّية أكثر من حرفيّة وصفويّة، التي تهيمن اليوم على المشهد السلفي بكامله، وهي على ارتباط وثيق بالوهّابية السعودية النصّية المغالية.

3 ـ السلفية التكفيرية الأكثر راديكالية؛ فهي انتقائية في تكفير الحكّام، ويتمّ تقديم أتباعها على أنهم معتدلون، كحركة الألباني في الأردن[2].

وبالرغم من هذا الاختلاف، يبقى الجوهر هو الأساس الذي تنطلق منه هذه الجماعات، والتي تشترك في المصادر الإيديولوجية المعتمدة لديها. فابن حنبل، وابن تيميّة، وابن عبد الوهّاب حاضرون بقوّة في فكر هذه الجماعات، سواء كانت تقليدية أم «جهادية».

إلاّ أنّ العنوان الأكبر الذي تنضوي تحته أكثر الجماعات السلفية، هو التيار السلفي "الجهادي"، والذي سطع نجمه بعد اغتيال الرئيس المصري الأسبق أنور السادات، وأخذ ينتشر على يد جماعة التكفير والهجرة المصرية، لينتقل بعدها إلى المغرب العربي في منتصف الثمانينات من القرن العشرين.

إنبثقت فكرة السلفية «الجهادية»، على قاعدة معاداة "الغرب الكافر" وإعلان الحرب المفتوحة على الأنظمة الفاسدة وغير المسلمة. ويعود السبب

2– المرجع السابق، ص 177.

في العداء السلفي (المزعوم) للغرب إلى الازدواجية المتّبعة من قِبل تلك الأنظمة في إطار الصراع الغربي ـ الإسلامي، والذي على أساسه تمّ تقسيم العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الكفر.

لكن، هناك نقاط التقاء ونقاط تباعد ما بين السلفية التقليدية والسلفية "الجهادية". «فالجهاد» والسياسة والتنظيم هي قضايا مفصلية وضعت هذه الجماعات السلفية في حالة من التشرذم والانقسام. فالفكر أو العقيدة أو المرجع واحد لدى كلّ السلفيين، إلاّ أن الاختلاف فيما بينهم حول القضايا المذكورة يتمحور حول مركزيتها أو موقعيتها. وتالياً عرض مجمل لها:

1 - السلفيّة و«الجهاد»:

جعلت السلفية "الجهادية" من «الجهاد» القضية الأساس، وهو فريضة على كلّ فرد، ولا يُعتبر عملاً جماعياً، ولا يحتاج إلى مؤسسات للانخراط فيه، أو تخطيط أو برنامج عمل. فهو السبيل الوحيد للوصول إلى الخلافة الإسلامية وتطهير البلاد الإسلامية من رجز الكفّار. ولا مكان للدبلوماسية والحوار في أجندة السلفية، فلا سبيل للخلافة إلاّ القوّة والموت.

وترى السلفية «الجهادية» أن التغيير بالقوّة هو أنسب وأصحّ الوسائل للتحرّر وتحكيم الشريعة وتصحيح البنية الدينية والاجتماعية والسياسية للمجتمع. «فالجهاد» هو أحد أركان منهج السلف الصالح، وهو يقع وجوباً عينياً على على كلّ فرد مسلم، في وجه العدوّ المحتلّ، وضدّ النظام الحاكم المبدّل للشريعة الإسلامية، ويحكم بالقوانين الوضعية أو النظام المبالغ في الظلم. ويرى السلفيون أنّ العنف الذي يمارس باسم الإسلام عبادة فردية[3].

3– مدوّنة السلفية والسلفيين الإلكترونية، 2013/12/1.

أمّا السلفية التقليدية، فتنظر إلى «الجهاد» على أنه واجب جماعي (فرض كفاية). أي بمعنى أنه ينحصر ضمن حدود جغرافية وزمنية؛ فإذا قام به البعض سقط عن الباقين، وفقط لردّ العدوان الذي تتعرّض له الأمّة. وبمعنىً أدقّ، هو يطبّق فقط في حالة الدفاع عن النفس. وهذا الأمر وضع السلفية التقليدية أمام انتقاد السلفية «الجهادية» التي وصفتها بالمُهادنة والمُعطّلة لأحكام الله عزّ وجل[4]!

2- السلفيّة والسياسة:

فيما يتعلق بالسياسة التي تشكّل مفصلاً أساسياً وشرطاً موضوعياً في تكوّن العقيدة السلفية، فإن نظرة السلفيين للسياسة تختلف ما بين مؤيّدٍ ومعارض، حيث اتخذ الخطاب السلفي حيالها منحيين: أحدهما وقف عند حدود العنف الرمزي، والآخر تجاوز ذلك ليتبنّى العنف المادي. وهذا ما فجّر الخلاف لاحقاً ما بين السلفية التقليدية والسلفية "الجهادية".

ففي الوقت الذي تبالغ فيه السلفية "الجهادية" في عرض خطابها السياسي وتفصيله، تأتي السلفية التقليدية لتحقّر السياسة وتبعدها عن اهتماماتها، لكنها لا تستبعد أن تمتثل لبعض الأمور التي تنظّم أمورها، بحيث تختصر فعلها السياسي في هذا المبدأ، وتُبعد من خلاله كلّ حديث مفصّل عن السياسة، بكلّ ما يتفرّع عنه من قضايا. فالسلفية التقليدية تبنّت السياسة بشكل رمزي؛ وإن لم تكن في الظاهر ثورية، إلاّ أن في مكامنها تضمر العنف، ظناً منها أنها بذلك توافق منهج السلف الصالح الذين لا يتحدثون في القضايا إلاّ عند وقوعها. فالخروج والتمرّد على الحاكم الظالم ليس فيه خيرٌ للأمّة الإسلامية، بل هو خدمة للعدوّ، على أن تبقى النصيحة والمشورة سيّدة الموقف. وبالنسبة

4- موقع مجلة الديمقراطية ـ شبكة الإنترنت ـ 2014/9/6.

للسّلفية التقليدية، لا بدّ أولاً من العمل الشرعي والمنطقي، الذي يبدأ بالعقيدة ثمّ بالعبادة ثمّ بالسلوك تصحيحاً وتربية. أما التحرّك السياسي قبل تحقيق التصفية والتربية، فلن تكون له سوى نتائج سيّئة[5].

3. السلفيّة والتنظيم:

يرى السلفيون جواز ومشروعية العمل الجماعي (المنظّم)، بشرط تحقيق المصلحة ودفع المفسدة. وهو ما يلزم عندهم عدّة أمور، منها: عدم المصادمة مع الحكومات المدنية، لأن ذلك يجرّ على الدعوات كثيراً من المفاسد ويجعل الناس تستهين بدماء المسلمين، والبعد عمّا يُفهم منه خطأ البيعة والسرّية حال التمكن من الجهر بالدعوة، فتكون السرّية حينئذ مخالفة للمقصود منها، وعدم التعصّب للجماعة، بل يكون التعصّب للحقّ[6].

إلاّ أن نسبة التنظيم تفاوتت ما بين نوعي السلفية (التقليدية والجهادية). ومع ما يسود من تصوّرات مريبة في أكثر الأحيان، إلاّ أنّ المسألة تبقى موضع تساؤل لدى العديد من المحلّلين والباحثين. فالسلفيون التقليديون كانوا في أكثر الأحيان يلجؤون إلى تأسيس جمعيات للانخراط فيها في سبيل ممارسة نشاطاتهم، وضمن خلايا صغيرة[7]. واعتماد السلفية التقليدية الجمعيات كغطاء لممارسة نشاطها، يعود إلى السياسة القمعية التي كانت تمارس بحقّها من قبل الأنظمة. لكن بالرغم من ذلك، فقد تمكّن العمل السلفي التقليدي من مواصلة التعبير عن نفسه، في ظلّ احتمال تغيّر السياسة الرسمية؛ وبالتالي تغيّر موقف السلطات إزاء الحركة السلفية. ولعلّ ذلك ساعدها في استقطاب المزيد من المؤيّدين والحفاظ عليهم في صفوفها، من خلال الإقرار اللفظي بالانتماء،

5– المرجع السابق.

6– مدوّنة السلفية والسلفيين الإلكترونية - 2013/12/1.

7– مجلة الديمقراطية - مرجع سابق.

دون أن يتجسّد ذلك بالانخراط في تنظيم معيّن؛ فالكلّ يشارك كأقران في صنع القرار. كما يتحمّل الكلّ المسؤولية الناجمة عن ذلك القرار. فالسلفية التقليدية لا تؤمن كثيراً بالتنظيم. أو بالأحرى هي لا تجد ضرورة لأن تضع نفسها ضمن هذه التنظيمات، والتي برأيها تحدّ من قدرتها على نشر دعواها.

هذا في حين ترى السلفية الجهادية «في التنظيم نتيجة حتمية للدور الذي تقوم به». فمتطلّبات العمل «الجهادي» العسكري تفرض الاصطفاف ضمن تنظيم. والتخطيط والتدريب والتنسيق، هي ضرورات عسكرية مهمّة لإنجاح المهمّات، وخاصة مع وجود فروع للسلفية تنتشر في الدول الأخرى، وذلك لتأمين التواصل فيما بينها. والسلفية «الجهادية» لها علاقات وامتدادات تنظيمية متعدّدة. فالسلفيون «الجهاديون» في المغرب العربي ينشطون ضمن خلايا مغلقة وانتقائية محدودة العدد، وعلاقاتهم تسودها السريّة التامّة[8].

وتعتمد الجماعات السلفية «الجهادية» على التركّز في التنظيم والقيادة، حيث تنشط العلاقات والتعاون المكثّف ما بين المجموعات المنتشرة في الكثير من الدول. وهذا التنظيم يتطلب إمداداً مالياً ضخماً لإعداد العناصر من هذه الدول، في ظلّ توزيع الصلاحيات على الأجنحة والهيئات والإمارات واللجان التي تتكوّن منها تلك الجماعات، وبما يفرض وجود علاقات خارجية لفتح قنوات الاتصال بين هذه الأجهزة[9].

ثانياً: التنظيم الهيكلي للجماعات السلفية

تسود الكيان المسلم (السنّي عموماً) حالة من الفوضى الاعتبارية، من الناحيتين الدينية والمؤسساتية، ما أسهم في تشظّي أشكال التنظيم لدى

8- موقع تورس على شبكة الإنترنت.

9- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/8/11.

السلفيين، وخصوصاً بين السلفيين التقليديين، وجعله من المسائل المعقّدة، وفرض واقعاً مختلفاً لديهم عن واقع باقي التنظيمات، ممّا دفع بالسلفيين لاعتماد أسلوب القيادة الاعتبارية.

1 ـ أسباب الفوضى الاعتبارية:

(1) سوائيّة الإسلام السنّي تمتدّ أيضاً إلى الحقوق المتساوية في تأويل الدين.

(2) تنافس الطوائف والمدارس الفقهية المختلفة فيما بينها.

(3) عدم وجود هيكلية تراتبية رسمية لعلماء الدين، بحيث يستطيع كلّ عالم دين إصدار الفتاوى بشكل فردي ودون مراجعة أحد. أي بمعنىً أدقّ، عدم وجود سلطة شرعية أعلى تراقب إصدار الفتاوى.

(4) تعدّدية المراكز القضائية الدينية التي تدعم سياسات رسمية مختلفة مع وجود انحسار حالة المشروعية الخاصة برجال الدين[10].

هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى أسهمت في هذا التشظّي، ومنها : الحرب العالمية على الإرهاب، والتي أدّت إلى انفكاك عقد العديد من الشبكات والجماعات الاسلامية الراديكالية، ممّا شكّل عائقاً أمام عملها؛ كما إلى عرقلة التوجيهات والإرشادات الشخصية داخل هذه الجماعات، في ظلّ إدراك الإسلاميين الراديكاليين عدم قدرتهم على الاستمرار في خوض الصراعات العصابية، وعجزهم عن تأمين قواعد آمنة في غالبيّة البلدان المسلمة والاعتماد عليها وفتح شبكات في الخارج، كأوروبا على سبيل المثال[11].

2 ـ القيادة الاعتبارية:

وتعني القيادة والإرشاد من خلال شبكة الإنترنت، وهي تفتقر إلى الصلة المباشرة والسلسلة القيادية التراتبية. وقد خرجت إلى حيّز الوجود بسبب

10- مؤتمر هرتسيليا (11)، مرجع سابق، ص182.

11- م.س، ص 185.

الحاجة إلى تقسيم الحركات الإسلامية الراديكالية وضمان سرّيتها[12].

ولعلّ دوافع ذلك تعود إلى حاجة هذه الجماعات إلى التقسيم والسرّية، في ظلّ الظروف الفوضوية التي تعيشها، والتي يغلب عليها التنظيم التقليدي البعيد عن الديمقراطية، والمتمسك بالثقافة السياسية الإسلامية المغلوطة.

3 ـ آليات القيادة الاعتبارية:

مع ضعف التنظيم، وغياب أيّ تواصل مباشر فيما بين أتباع الجماعات السلفية، كان لا بدّ من وسيلة لإيجاد حالة يتم عبرها التنسيق والتواصل. فالتطوّر الذي حصل على مستوى المعلوماتية والتوسع الناتج عنه، دفع الجماعات السلفية المتطرّفة إلى اعتماد التقنيّات الحديثة في عملها التكتيكي والتنظيمي، للتواصل مع أعضائها، وكطريقة أسهل وأسرع للتنسيق والاستقطاب. وكان دخولها إلى عالم الإنترنت بقوّة، حين أطلقت مواقع ومنتديات وشبكات لنشر أفكارها وعقائدها. وتحت عنوان "الجهاد" الإلكتروني، قامت تلك الجماعات بنشاطات لتشكّل حلقة مركزية تستقطب مؤيّدين من جنسيات مختلفة، حيث شكّل العام (2000) الانطلاقة الأولى الفعلية لتنظيم القاعدة المتطرّف في عالم الإنترنت.

وأسلوب القيادة الاعتبارية هذا فرض وسائل اعتبارية أخرى، مثل :

البيعة الاعتبارية (الإنترنت): تحت عنوان الدعوة إلى بيعة الموت لمبايعة أسامة بن لادن.

– الفتوى الاعتبارية.

– الشورى الاعتبارية.

12– م.س. ص 172.

ومع حلول العام 2011، إستطاعت الجماعات السلفية الخوض في عالم الإنترنت بمستوىً تقني أفضل، حيث ركّزت على الأقلّيات المسلمة المنتشرة في العالم، في ظلّ تنامي الوعي من قِبل بعضها، وخاصة بعد ظهور حقيقة هذه الجماعات، وبُعدها عن الشريعة الإسلامية، ونشرها للأفكار الغريبة والمتطرّفة[13].

13- موقع منتديات كلّ السلفيين الإلكتروني، 2014/3/28.

الفصل الثالث

الحركات السلفية
و«الإخوان المسلمون»

أولاً: السلفية و«إخوان» مصر

كان لانتشار الحركات السلفية في الأقطار العربية والإسلامية تأثير كبير على ولادة الحركات والجماعات المتطرّفة والإرهابية التكفيرية فيما بعد. وقد وصل التأثر حدّ الاستنساخ فيما بينها إلى درجة الجزء من الكلّ. فالوهّابية حركة أو ظاهرة أرادت لنفسها أن تكون عالمية، وكانت مصر إحدى الدول التي تأثرت بتداعيات هذه الظاهرة، حيث كان لها نصيب وافر من مبادئ وأفكار الحركة الوهّابية. وكانت الوهّابية قد وضعت أولى بصماتها من خلال محبّ الدين الخطيب الفارّ من العثمانيين، الذي أسّس المطبعة السلفية، والتي وضعت أوّل كتاب وهّابي تلته بعدها عدّة كتب. وكانت الوهّابية قد انتشرت بين الشباب المسلم، لتسهم بشكلٍ أو بآخر في تنشئتهم؛ ومن ثمّ امتدّ تأثيرها إلى بعض رجال الأزهر المتشدّدين، كمحمد الفقي، الذي أسّس أول قاعدة للوهّابيين، وهي جماعة أنصار السنّة، والتي لم تستمرّ طويلاً. ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى ظروف الساحة المصرية، التي كانت منشغلة بالقضية الوطنية ومقاومة الإحتلال البريطاني، حيث صادف وجود جماعة الإخوان المسلمين حينها.

مع ذلك، لا يُنكر ما كان لهذه الجماعة السلفية المتشدّدة من دورٍ بارزٍ في تصدير بعض الرجال الذين ساهموا في قيام الجماعات الإسلامية في مصر، ومنها جماعة الإخوان المسلمين. إلاّ أنه مع مجيء أنور السادات واعتماده سياسة معاكسة لسياسة جمال عبد الناصر التي حاربت هذه الجماعات، فسح المجال أمام بروز جماعات وهّابية أخرى، كجماعة أنصار الحق المنشقّة عن

جماعة أنصار السنّة[1].

وكان من بين تلك الحركات التي استطاعت أن تبرز وتبقى أكثر من غيرها، حركة أو جماعة الإخوان المسلمين، التي نشأت عام 1928 في الإسماعيلية، على يد الشيخ حسن البنّا، وما لبثت أن انتقلت إلى القاهرة، في ظلّ ظروف اجتماعية واقتصادية صعبة كانت تعاني منها مصر في تلك الآونة، في الوقت الذي كان فيه الرئيس جمال عبد الناصر يمنع نشوء أيّ حزب، حيث حلّ كلّ الأحزاب آنذاك. ولكن، الذي أنقذ الجماعة هو تقديم نفسها على أنها «جماعة دينية دعوية»، مع محاولتها تقديم الحلّ الإسلامي البديل، وفرض القرآن الكريم كدستور للبلاد، وتكريس مفهوم القومية الإسلامية كبديل للقومية المصرية، في سبيل تحقيق الأهداف الحقيقية غير المعلنة، وهي:

- تحرير الوطن الإسلامي من سلطان الأجنبي.

- جعل مصر دولة إسلامية حرّة تعمل بأحكام الإسلام، وتطبّق نظامه الإجتماعي، وتعلن دعوته الحكيمة للناس.

وبالرغم من تستّر جماعة الإخوان كجماعة دعوية، إلاّ أن ذلك لم يجعلها بمنأىً عن الملاحقة. بل هي كانت دائماً تحت المجهر الحكومي، حيث كان أفرادها يتعرّضون للاعتقال من حينٍ لآخر، وأموالهم وممتلكاتهم في دائرة المصادرة[2].

وكان نشاط الإخوان في مصر يسير على قاعدة أنها حركة جامعة شاملة تُعنى بالإصلاح الإجتماعي والسياسي. وفي ثلاثينات القرن العشرين، زاد التفاعل الإجتماعي والسياسي للجماعة لتصبح في عداد التيّارات المؤثّرة

1- الورداني، صالح، مرجع سابق.

2- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/3/20.

سياسياً واجتماعياً. وفي العام 1942، وخلال الحرب العالمية الثانية، عمل الإخوان على نشر فكرهم في كلٍ من شرق الأردن وفلسطين. كما قام الفرع السوري للإخوان بالانتقال إلى العاصمة دمشق في العام 1944.

في العام 1954، تعرّضت جماعة «الإخوان المسلمون» للحلّ ولحظر نشاطها، حيث فرّ بعض أعضاء الجماعة إلى خارج مصر، ليقوموا بنشر دعوتهم في بلاد كثيرة داخل الوطن العربي وخارجه، مستندين إلى قول المرشد حسن البنّا: «أخصّ خصائص دعوتنا، أنها ربّانية عالمية. وأمّا أنها عالمية، فلأنها موجّهة إلى الناس كافة، لأنّ الناس في حكمها أخوة»[3]. وهذه الدعوة ساهمت في انطلاق الكثير من الحركات الأصولية، كجبهة الإنقاذ في الجزائر، والنهضة في تونس، والجبهة الإسلامية في السودان، والإصلاح في اليمن؛ وهو كان التنظيم الأوّل للجماعة خارج مصر. وكانت هذه الحركات تجمعها أدبيّات الإخوان، حيث شكّلت التجربة المصرية المرجع والنموذج. فقد حذت هذه الحركات حذو الجماعة في الدعوة والتنظيم، كطريقة تمثّل استمرارية الاتصالات القيادية. فالإخوان خارج مصر يمارسون نشاطهم بعيداً عن مركزية القاهرة؛ ولكن هذه الاستقلالية لا تمنع وجود نوع من التنسيق[4].

كان تأسيس جماعة الإخوان المسلمين (بحسب أدبيّاتها) في سبيل إحياء معاني الإسلام الصحيحة في النفوس، والالتزام بتعاليمه عقيدةً وسلوكاً ومنهج حياة، وبناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتخليص البلاد الإسلامية من الإستعمار بكافة أشكاله، وإقامة الخلافة

3- الشيباني، رضوان أحمد شمسان، الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005، ص 139.

4- زهر الدين، صالح، الحركات والأحزاب الإسلامية وفهم الآخر، دار الساقي، بيروت، ط1، (2012)، ص 326.

الإسلامية الواحدة على بلاد المسلمين، وسيادة العالم[5]!

وقد رفعت جماعة الإخوان الشورى كشعار لها فقط، وهي لم تخرجها من إطارها النظري. فالشورى ليست بالأمر المقدّس، بحيث يمكن التراجع عنها، واستبدالها بالحجّة والقياس، معتمدة على موقف الرسول الأكرم (ص)، عندما رفض قتل المنافقين، حيث قال: «حتى لا يُقال إن محمّداً يقتل أصحابه». إلاّ أن هذا القياس رُفض من قِبل أحمد ربيع، أحد الكوادر الإخوانيين الذي قال: «إن هذا قياس فاسد، لأن القياس الصحيح هو قول الرسول (ص): «لو أن فاطمة بنت محمّد سرقت لقطع محمّد يدها»[6].

وعن موقف جماعة الإخوان من الديمقراطية، فهي اعتبرتها وسيلة منافية لقناعاتها، وإن كانت مضطرّة لسلوكها، سواء على صعيد الجماعة أو خارجها. أما بالنسبة للديمقراطية التي تنتهجها داخل أطرها، فما هي إلاّ ديمقراطية مصطنعة، حيث تُعتبر الانتخابات التي تقيمها شكلية؛ والتصويت فيها يتم برضا وتوصية المرشد العام، ولا يمكن لأحد أن يعترض على أعماله، وانتقاد القرارات الصادرة عنه أمرٌ مرفوض. وكلّ من تسوّل له نفسه بتوجيه مثل هذا الانتقاد يتعرّض فوراً للفصل. وقد ذكر عمر التلمساني - المرشد العام الثالث للإخوان - شيئاً عن ذلك: «ما من أحد قد تمرّد على المرشد العام اعتداداً بمكانته إلاّ كان مصيره النبذ والإبعاد»[7].

ويعود ذلك في الأساس إلى وجود فجوة في فهم جماعة الإخوان المسلمين

5- صالح، محسن، دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، دار فجر يولانغ، ماليزيا 2003، ط1، ص 335.

6- قلب الإخوان: محاكم تفتيش الجماعة، دار نهضة مصر، ط.1 (2013)، القاهرة، ص47.

7- زهر الدين،، صالح، مرجع سابق، ص 207.

للديمقراطية كممارسة وليس كقِيم. فهم يدخلون الإنتخابات ويطلِقون التظاهرات دون الايمان بقيمِها، من مساواة وحرّية وعدالة.

والجماعة، بمناداتها بالشورى والديمقراطية مع عدم الالتزام بهما، تكون قد جسّدت نقيض الحالة القرآنية. فهي بدلاً من أن تسلك الإسلام مبدأ ومنهجاً، رفعت شعارات نادى بها الدين الحنيف فحسب. فالشورى من القواعد التي فرضها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم «فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكّلين» [آل عمران : 59]؛ وأيضاً: «والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وممّا رزقناهم يُنفقون» [الشورى : 38]. وفي هاتين الآيتين إشارة صريحة حول وجوب الشورى، وهو أمرٌ وقعت في خندقه جماعة الإخوان؛ فاتخاذها للشورى كشعار فقط، دفع العديد من الإخوانيين إلى الابتعاد عن الجماعة والخروج عليها، الأمر الذي أدّى إلى الكثير من الانشقاقات، وخاصةً في عهد المرشد الأول (حسن البنّا) بسبب نزعته الفردية وعدم احترامه حرّية الرأي والالتزام بالشورى[8].

أمّا على صعيد مشاركتها في الحياة السياسية، فكان لا بدّ أولاً من تحوّل جماعة الإخوان من حركة دعويّة إلى حركة سياسية. فعلى الرغم من نقدها للأحزاب، واعتبارها ذلك أمراً مناقضاً للإسلام، فقد جرت عدّة محاولات من قِبل بعض الإخوانيين لتحويل الجماعة إلى حزب سياسي. وفي عام 1987، ظهرت مبادرة فردية من مأمون الهضيبي ـ المرشد العام ـ لإعلان الجماعة حزباً سياسياً، معتمداً على النصوص القانونية التي تعطي الحق في ذلك لأيّ كتلة

8- زهر الدين، ص 207.

برلمانية، عند استكمال نصاب معيّن، وكانت الكتلة الإخوانية قد تجاوزته بكثير... إلاّ أن الإنسداد السياسي وعدم الثقة في المناخ والنظام السياسي المصري لم يسمحا للهضيبي - صاحب قرار التحوّل إلى حزب سياسي.. ووفاته (في 2004/12/7) - من تحقيق ذلك، وإلاّ لكان هذا المشروع تأكد أكثر فأكثر داخل الجماعة، خاصة في مجال حدوث إصلاح سياسي للإخوان[9]. ولكن، في عهد حامد أبو النصر، تحوّلت جماعة الإخوان فعلاً إلى حزب سياسي تنافسي يحمل المواجهة الإنتخابية[10].

إن دخول جماعة الإخوان المسلمين في الحياة السياسية كان تمهيداً للوصول لغاية في نفسها. وعدم إيمانها بالسياسة، والخوض فيها، طريقٌ وضع الأشواك أمامها، بحيث فتح باب الانتقادات من داخل الجسم الإخواني. وقال البعض بأنها خرجت عن الخطّ القويم، الأمر الذي دفع بالعديد من رموزها إلى التخلّي عنها، وإنشاء حركات تعود بالفكر والمنهج إلى السلفية التي تنبذ السياسة وأهلها.

أيضاً، من المبادئ التي انطلقت منها جماعة الإخوان مفهوم الوحدة والحق والإجماع، حيث يصفون حركتهم بأنها دعوة نقيّة، ويعتبرون أنّ من أعظم ما مُنِي به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحبّ والوحدة[11]. وهذا ما كان البنّا يتبجّح به: «الإسلام يعدّ الوحدة جزءاً أساسياً في حياة المجتمع الإسلامي، ولا يتساهل فيها بمجال»؛ كما يعدّ « الخلاف والفرقة قرين الكفر». والإجماع انعقد (في الجماعة) على أنّ الأحزاب

9- زهر الدين، ص 215

10- قلب الإخوان، ص 90.

11- موقع إخوان أون لاين، 2013/12/14.

المصرية هي أساس الفساد الإجتماعي الذي نصطلي بناره الآن». «لقد آن الآوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية في مصر، وأن يُستبدل به نظام تجتمع فيه الكلمة، وتتوفر جهود الأمّة حول منهاج إسلامي صالح»[12].

ثانياً: الإخوان المسلمون والوهّابية

إذا أردنا تصنيف جماعة «الأخوان المسلمون»، إنطلاقاً من مبادئها وخلفياتها، لقلنا إنها لم تكن بعيدة يوماً عن الفكر الوهّابي. كان حسن البنّا قد أتى بأفكاره على خلفية تأثّره بالأخبار التي كانت تأتي من نجد والجزيرة العربية ـ منشأ الوهّابية ـ حيث كان شديد التأثّر بجيش «الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود»، الذي استطاع أن يُخضع الجزيرة العربية آنذاك، والذي أُطلِق عليه لقب «الإخوان» و«إخوان من أطاع الله»؛ وكان قد جعل شعاره السيف وعبارة التوحيد «لا إله إلاّ الله». والبنّا ذكر هذا في كتابه «الإخوان المسلمون... أحداثٌ صنعت التاريخ». إلاّ أنّ الكتاب كان قد خضع لمراجعة مصطفى مشهور، الذي طلب حذف هذا القول، خوفاً من فتح باب الانتقاد على الجماعة[13].

ولعلّ تصنيف جماعة الإخوان ضمن الجماعات السلفية يعود إلى تأثّر أصحابها بالدعوة السلفية. فإلى جانب البنّا، كان سيّد قطب. إلاّ أنه تأخر في التزامه بالمنهج الإسلامي، حيث يُعزى هذا التأخر إلى سجنه، وكان في حالة المرض، الأمر الذي حال دون تعرّفه على المنهج السلفي بشكل كامل، ما أدّى لمخالفته للسلفية في بعض القضايا الفكرية والاعتقادية. كما تأثّر بفكره

12– زهر الدين، ص 216.

13– الخرباوي، ثروت، سرّ المعبد الأسرار الخفيّة لجماعة الأخوان المسلمين، دار نهضة مصر، ط1، (2007).

(الشيخ) أيمن الظواهري الذي أسّس لاحقاً حركة الجهاد الإسلامي في مصر (وصار فيما بعد مسؤولاً كبيراً في تنظيم القاعدة المتطرّف).

هذا الارتباط بالجماعات السلفية الأخرى من غير المصرية، في النزعات التكفيرية، عبّر عنه حسن البنّا في إحدى رسائله التي كان قد وجّه فيها تعليماته للإخوان، وما يجب أن يفعلوه في حياتهم، حيث قال: «إن تقاطع المحاكم الأهليّة وكلّ قضاء غير إسلامي، والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الإسلامية، مقاطعةً تامّة»[14].

كذلك، ما يجمع جماعة الإخوان بالوهابية فكرة تقسيمها المجتمع إلى مجتمع جاهلي ومجتمع مسلم، وأنه لا بدّ من الانعزال عن الأوّل. فالإخوان يعتبرون أن في مصر مجتمع جاهلي لأنها تحتكم لغير الله. وسيّد قطب لم يكن أول من أتى بهذه البدعة، ولم يكن شكري مصطفى مُنتجاً لأفكار خاصة به، وهو يدعو إلى هجرة المجتمع الكافر الذي يحكم بغير ما أنزل الله؛ فهو استمدّ بعض أفكاره من رسالة التعاليم الخاصة بحسن البنّا، حيث جاء في التعليمة رقم 37: «أن تتخلّى عن صلتك بأية هيئة أو جماعة، لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتك، وخاصة إذا أمرتُ بذلك»[15]. وهذه النوازع التكفيرية لدى البنّا الداعية الوسطي، كانت مجهولة من قِبل البعض من أتباعه. «فالخروج على الجماعة يمحق الفضائل، والولاء لها يكفّر السيئات، وأن الذين ينابذون المرشد يعودون للجاهلية الأولى لأنهم خلعوا البيعة»[16]!

فجماعة الإخوان، وإن استبعِدت عن إطار الجماعات السلفية المتطرّفة في

14- الخرباوي، ص 276 / 275.

15- الخرباوي، ص276.

16- الخرباوي، ص 278.

بعض الأحيان، إلاّ أنّ مبادئ السلفية الوهّابية كانت تتربّع واقعاً على عرش النهج الإخواني. فالنزعة التكفيرية التي انطلقت منها الجماعات السلفية الوهّابية كانت في صميم العمل الإخواني، إلاّ إنها كانت متفاوتة بين ضامر لها ومعلن، نسبةً إلى حدّة النزعة لدى المرشد العام للجماعة. وأوّل بروز لها إلى العلن كان على يد شكري مصطفى ـ المؤسّس الثالث لحركة الإخوان ـ حيث خرجت إلى النطاق العملي عند تولّيه منصب المرشد، ووضع أوّل بصمة لدولته، بأن أخرج أفكاره ومنحها الإطار العملي، وذلك عندما قام بخطف الشيخ الذهبي الذي كان وزيراً للأوقاف ـ المعارض والمحارِب لأفكار شكري فقد أمر أحد رجاله بإطلاق رصاصة على رأس الذهبي، أودت بحياته[17].

إذاً، القوّة والعنف أسلوبان اعتمدتهما جماعة الإخوان لتطبيق أفكارها (مثل الوهّابية)، وهي حاربت كلّ من خالفها في السياسة أو الرأي. فقد كثرت الاغتيالات والتفجيرات في عهدها، حيث عُزيت هذه الممارسات إلى طريقة تنظيم الإخوانيين، وتربيتهم داخل الجماعة التي كانت توصيهم بضرورة غلبة العنف والسرّية على حركتهم. فالتنظيم الهيكلي للجماعة غلبت عليه السرّية، وكذلك تأسيسها لبعض الأجنحة، كتشكيل جهاز سُمّي النظام الخاص، والذي نُسبت إليه كلّ أعمال العنف. ووجود مثل هذا النظام أثار الخلاف حوله، بسبب السرّية التامة التي اتّسم بها، وكانت فكرة إنشائه تعود لحسن البنّا سنة 1940. أما أهداف إنشاء مثل هذا النظام، فتراوحت بين قائلٍ بأنه ضدّ الخارج، كما قال أحد الباحثين: «طرح أحدٌ على حسن البنّا فكرة إقامته بعد اتضاح التواطؤ الإستعماري مع الصهيونيين على تسليمهم فلسطين، وأيقن المرشد أنّ الإنكليز يسلّحون عصابات اليهود. وأدرك أيضاً أن الحكومات العربية والحكومات المصرية المتعاقبة على كرسيّ الحكم متخاذلة، إن لم يكن

17– سرّ المعبد، ص 291.

بعضها متواطئاً مع الإنكليز؛ فكان طبيعياً والإخوان المسلمون ينادون بتحرير وطنهم والوطن الإسلامي جميعه، التفكير في الاستعداد للقوّة وردّ العدوان بالنار». والبعض الآخر وضع إنشاء هذا النظام في خانة الأهداف السياسية ومواجهة الخصوم السياسيين. وهناك رأيٌ آخر يُرجع تشكيله إلى الاصطدام بين السلطة والإخوان في عهد حسين سري باشا[18]. ومن ميّزاته:

- عدم مساءلة القيادة للنظام الخاص، ومنحه السلطة على مخالفة القرارات.

- عدم وجود نظام مراقبة.

- الاعتماد المطلق على الثقة[19].

وهناك أسباب كثيرة دفعت السياسة الإخوانية للتقلّب بين الحين والآخر، والتي جعلت هذا النظام الخاص مصنعاً ينتج رجالاً يغلب عليهم الرعونة والجهل، بحسب تعبير حسن الهضيبي - المرشد الإخواني - الأمر الذي تسبّب بقتل حسن البنّا لاحقاً، الذي عاد وأسف على تشكيل مثل هذا النظام. حين قال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أنشأت النظام الخاص». فالجماعة كما قال عبد الستّار المليجي - القيادي الإخواني البارز - كانت بيد «مجموعة خطفوا الجماعة»، مجموعة من أفراد النظام الخاص[20].

لقد كان الطابع الشخصي مسيطِراً على سلوك جماعة الإخوان، التي تقلّبت سياستها من مرشد لآخر، وحتى من قيادي إخواني لآخر. وإن نُسبت بعض أعمال العنف إلى الجماعة، فقد كانت توضع في خانة الأعمال الفردية التي استنكرها الإخوان ومرشدهم حسن البنّا في حينه. أمّا بالنسبة لمحاولة

18- زهر الدين، ص 226/225.

19- الشيباني، مرجع سبق ذكره.

20- قلب الإخوان، ص 98.

اغتيال جمال عبد الناصر، فقد اعتبرها النائب الأوّل للمرشد آنذاك مؤامرة دُبّرت لزجّ الإخوان في السجون والمعتقلات وإزاحتهم من الطريق للاستئثار بالسلطة والانفراد بالحكم[21].

إلاّ أن سياسة العنف أخذت منحى الجمود فيما بعد، على إثر المواجهات العنيفة بين جماعة الإخوان وبين النظام الحاكم في عهد جمال عبد الناصر. وخوفاً على الوجود الإخواني، سلكت الجماعة سياسة «ضبط النفس والتعقّل» للوصول إلى مرحلة تحضير المجتمع لزرع بذور الدولة الإسلامية في مصر في الوقت المناسب!

ثالثاً: «الإخوان» والمقاومة ضدّ «إسرائيل»

فكرة الجهاد والعمل النضالي ضدّ «إسرائيل» كانت من مفردات المعجم الإخواني. فالحثّ على القتال ضدّ المحتلّين الصهاينة، حسب الإخوان المسلمون، فريضة واجبة، والأمر بها من المسلّمات. لذلك، هي كانت تتردّد على الألسنة والكتابات والرسائل التوجيهية لمرشدي الجماعة. فمحمد مهدي عاكف (المرشد العام: ك2 /2004 وك2 (2010)، قدّس الجهاد والاستشهاد وخطّهما طريقاً للعزّة والإنتصار، حيث كتب أنّ الإسلام ينظر إلى المقاومة ضدّ الإحتلال في فلسطين على أنها جهاد في سبيل الله. وفي مقالة تتناول أهداف الإخوان المسلمين، اعتبر عاكف أنه بالنسبة للإخوان، يشكّل الجهاد أسمى دعامة للإسلام بعد الشهادتين (شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله)، مستشهداً بحديث الرسول محمّد (ص): «من مات ولم يغزُ، ولم يحدّث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق». وكان قد أعلن أيضاً أن الصهاينة ـ من مدنيين وجنود ـ يجب أن يُقتلوا، لأن الشعب الصهيوني بكامله

21- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

عبارة عن قوّة عسكرية مسلّحة تحتلّ فلسطين. وليس هناك فرق بين صهاينة عسكريين وصهاينة مدنيين[22].

وانطلاقاً من تبنّي جماعة الأخوان لفكرة الجهاد والايمان به، كان لا بدّ من أن يكون موقفها مؤيّداً لحركات المقاومة ضدّ «إسرائيل». وهذا ما سارت عليه الجماعة فيما بعد، حيث أعلنت مراراً وتكراراً عن استعدادها لدعم هذه الحركات، وكان لها دور في التعاون ما بين الجماعة الإسلامية (فرع الإخوان في لبنان) وحزب الله، في إطار المقاومة الاسلامية بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982؛ وكان للجماعة إطارها الخاص تحت اسم «قوّات الفجر»، والتي نفّذت عمليات مهمّة في صيدا ومنطقتها. كما تعاون حزب الله والجماعة على تنفيذ العديد من العمليات المشتركة في مرحلة متقدّمة ما قبل التحرير عام 2000. وخلال حرب تموز 2006 وقف الإخوان المسلمون في مصر، والجماعة الإسلامية في لبنان، إلى جانب حزب الله[23]. وأعلنت جماعة الإخوان وقتها عن الاستعداد لإرسال 10 آلاف متطوّع من الإخوان إلى لبنان لمساندة حزب الله. إلاّ أنّ الحزب رفض الأمر حينها. ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعته العسكرية التنظيمية الشديدة الانغلاق، كما إلى ظروف الواقع اللبناني المعقّدة!

وقد وصلت أوجه التعاون والدعم بين الطرفين حدّ إصدار الفتاوى، حيث أطلق الأمين العام السابق للجماعة الإسلامية في لبنان، الشيخ فيصل المولوي، فتوى شهيرة لدعم حزب الله، رداً على بعض المواقف السلفية المعارضة للحزب. كما أنّ مرشد الإخوان السابق محمد مهدي عاكف أعلن

22- مؤتمر هرتسيليا السنوي 11، مرجع سابق.

23- قصير، قاسم، إشارات على الفيسبوك، 17 /2011/10.

دعمه لحزب الله برغم بعض الاعتراضات من قِبل جهات سنّية وسلفية في مصر.

ظلّ هذا الموقف المعلن من قِبل الجماعة الإسلامية ثابتاً، حتى أتت عملية اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية الأسبق رفيق الحريري (شباط 2005)، حيث حصل تقارب ما بين الجماعة و«تيّار المستقبل»، ليوازيه تغيير في الموقف من حزب الله. وأخيراً، جاءت الحرب السورية، ومواقف الجماعة الإسلامية التي تدعم فيها الجماعات السورية المسلّحة، وتندّد بممارسات النظام السوري؛ وكلّها أمور أسهمت في تأجيج الخلاف ما بين جماعة الإخوان وحزب الله. إلاّ أنّ المرشد العام السابق محمد مهدي عاكف، وبالرّغم من كلّ ذلك، بقي إلى جانب حزب الله ودافع عنه، الأمر الذي لم يمنع من وجود بعض التباينات التي أسّست للأجواء السلبية التي ما تزال قائمة بين الطرفين حتّى اليوم[24].

أمّا بالنسبة للقضية الفلسطينية، فهي لطالما شكّلت القضية الجوهرية أو المحورية في فكر جماعة الإخوان، التي ترفض الاعتراف بـ«إسرائيل»، وتعتبرها مجرّد كيان غاصب للأراضي العربية والإسلامية المقدّسة، لا بدّ من العمل على إزالته. وهذا ما أكّده المرشد العام السابق محمد مهدي عاكف في قوله: «هذه المسألة ثابتة من ثوابت الجماعة، وليست محلّ جدل أو نقاش». وقد وافقه في ذلك خلفه المرشد الدكتور محمد بديع[25].

لقد أسهمت جماعة الإخوان بشكل مباشر في الدفاع عن القضية الفلسطينية، ليس فقط من خلال العمل الدعائي والتعبوي وجمع التبرّعات للمجاهدين في فلسطين، وإنما في المقاومة المسلّحة والعمل العسكري، حيث

24- م.س.

25- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

شاركت بعض الكوادر الإخوانية في حرب 1948 لتحرير فلسطين، عبر تشكيل كتائب مشتركة من عدّة بلاد عربية، كسوريا والأردن والعراق، خاضت خلالها مواجهات ضدّ «إسرائيل». ونتيجة لذلك، تعرّضت الجماعة للحلّ بعد عودة مقاتليها من فلسطين من قِبل رئيس الوزراء المصري آنذاك فهمي النقراشي[26].

تجدر الإشارة هنا إلى تصدّر حركة حماس لقائمة حركات المقاومة في فلسطين، باعتبارها جزءاً من جماعة الإخوان المسلمين أو جناحاً من أجنحتها. فهي تتبنّى نفس الطروحات التي جاءت بها الجماعة. وكانت الحركة قد أسّست لهذا الارتباط في المادة الثانية من الباب الأول من ميثاقها، حيث جاء فيها: «حركة المقاومة الإسلامية جناح من أجنحة الإخوان المسلمين بفلسطين. وحركة الإخوان المسلمين تنظيم عالمي، وهي كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث، وتمتاز بالفهم العميق والتصوّر الدقيق والشمولية التامة لكلّ المفاهيم الإسلامية في شتّى مجالات الحياة..».

وبالرغم من نفي مؤسّس حماس الشيخ (الراحل) أحمد ياسين لوجود أيّ علاقة تنظيمية بين الحركة والإخوان، إلّا أنه لا يُنكر التشابه في الفكر والنشاط بين هاتين الحركتين. بل هو يؤكّد على الاستقلالية في السلوك والأعمال، وذلك بما يتناسب مع الواقع الفلسطيني[27].

لكن، بعد قيام ثورة 25 يناير 2011 في مصر، حدث أمر مفاجئ قلب الثوابت في الموقف الإخواني المذكور، حيث أعلن المرشد العام محمد بديع حينها، كما أعلن غيره من الممثّلين للقوى السياسية الإسلامية، أن اتفاقية

26– ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

27– الشيباني، مرجع سابق، ص 184.

كامب دايفيد مع «إسرائيل» لا تراجع عنها، وإن كان من الممكن تعديل بعض البنود فيها[28]!

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى درجة إعلان صداقة الإخوان مع «إسرائيل»، كما جاء على لسان محمد مرسي (الإخواني)، بعد وصوله إلى سدّة الرئاسة. وأعلنت الجماعة بأنّ مشاكلها ومشاكل «إسرائيل» واحدة، وبأنّها مستعدّة للتعاون مع «إسرائيل» والولايات المتحدة الأميركية، مُبديةً استعدادها للسعي لتوطيد العلاقات معهما[29]!

إن الموقف السياسي المصري من القضية الفلسطينية أثناء الحكم الإخواني (القصير) تراوح بين الدعم لهذه القضية وعدمه في الوقت ذاته. فالخروج عن ثوابت جماعة الإخوان، وفتْح الباب أمام علاقات يمكن أن تجمع بين الجماعة و«إسرائيل»، العدوّ اللدود السابق لها، كرّس العرف الذي سار عليه النظام المصري في مراحل ما بعد حكم جمال عبد الناصر: تعزيز اتفاقيات «السلام»، والعلاقات الممتازة مع «إسرائيل» وحليفتها الولايات المتحدة، وخصوصاً في وقتٍ سعت فيه الأخيرة خصوصاً خلال مراحل الثورات العربية الأخيرة لاستمالة جماعة الإخوان إليها، لما تمتلكه من نفوذ واسع في الشرق الأوسط، بُغية الحفاظ على مصالحها في المنطقة، ومن أجل حفظ أمنها القومي!

28- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

29- موقع مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014/1/24

الفصل الرابع

السلفيّة «الجهادية» ورافدها

أولاً: الإخوان المسلمون والسلفية «الجهادية»

تقلّبت سياسة جماعة الإخوان المسلمين ما بين الاعتدال حيناً والتطرّف حيناً آخر، ممّا جعلها عُرضة لانتقادات عديدة من قِبل بعض الدعاة والعلماء السلفيين «الجهاديين»، الذين اتهموها بالتغاضي عن الدعوة للتوحيد وترسيخ العقيدة في نفوس المسلمين، وأنها أخطأت في دعوتها للثورة على النظم الحاكمة، واعتمدت في جهادها على بعض الفتاوى والتطبيقات الخاطئة[1].

وكان لدى الجماعة أشخاص متشدّدون يرون أن الإخوان طرحوا مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وراء ظهورهم، وأخذوا يسايرون الأنظمة العلمانية. وقد تصدّر هؤلاء السلفيين «الجهاديين»، أيمن الظواهري، الذي اعتبرفي كتابه «فرسان تحت راية النبي»، أن جماعة الإخوان تنمو تنظيمياً لكنها تنتحر عقائدياً وسياسياً، وأن «الجماعة أسقطت كلّ تاريخها في النضال بما يحتويه من دماء الشهداء وقروح المعذّبين ووجل المطاردين؛ بل وبكلّ ما يتضمنه تاريخها من التمسك بمبادئها وعقيدتها»!

ويعتبر السلفيون «الجهاديون» الديمقراطية التي سلكتها الجماعة من خلال مشاركتها في الانتخابات كأداة للتغيير، وسيلة غير شرعية، لأنّ حقّ التشريع لله وحده، وليس للبرلمانات، لما فيه من تفريغ الحاكمية من معناها ونقض مفهوم الولاء والبراء. وترى السلفية «الجهادية» في العنف القوّة الأنجع للتغيير؛ وهو ما وصلت إليه قناعة حسن البنّا، مؤسّس جماعة الإخوان، في أواخر حياته. وكان مفهوم «الحاكميّة» يشكّل المبدأ الأوّل الذي تتخذه السلفية «الجهادية»

1- القاعدة وأخواتها، مرجع سابق، ص 36.

كميثاق تلتزم به، والذي كان ينادي به سيّد قطب، وعلى أساسه كفّر كافة المجتمعات، والمبنيّ على الكفر بالدساتير والنظم والمؤسسات السياسية والأمنية والعسكرية في العالم الإسلامي باعتبارها لا تلتزم بالتوحيد.

هذا إلى جانب اتهام جماعة الإخوان بأن همّها فقط الاستقطاب الجماهيري، دون أن تهتمّ بالتربية العقائدية لعناصرها. وهو ما جعل العديد من الإخوانيين ضعيفي الإيمان وبعيدين عن الثبات في أوقات المحنة. هذا بالإضافة إلى جمع الإخوان ما بين الصوفية والسلفية، كما ذكر البنّا في تعريفه للإخوان المسلمين، حيث قال: «إنها طريقة سلفية وطريقة صوفية ودعوى إصلاحية». وهو بهذا يكون قد جمع بين المتناقضات باعتباره الاستشفاع بالأولياء ليس من المسائل الاعتقادية، بل من المسائل الفرعية؛ وهو أمرٌ يتناقض كلّياً مع ما يتشدّد السلفيون الوهّابيون في مكافحته باعتباره كفراً، وهم يصفون أهل الصوفيّة وأتباعهم بالقبوريين[2].

تلك أسباب وانتقادات «جوهرية» وضعت جماعة الإخوان المسلمين في خانة الابتعاد والانشقاق، حتى خرج من رحمها التيّار السلفي «الجهادي»، بحيث يمكن الاستنتاج بأنه كان للإخوان الدور الأكبر في تخريج متشدّدين شكّلوا النواة الأولى للسلفية «الجهادية». وكان ذلك بعد عملية المزج التي حصلت بين الحالة الوهابية والحالة القطبية، وخاصةً بعد تعرّف سيّد قطب على المفهوم السلفي الأصولي، والذي يبالغ في التشدّد[3].

وبعد أن قُدّر للإخوان حلّ النظام الخاص والتخلص من أفكار المواجهة و«الجهاد» ونبذها بالكامل، عادت هذه الأفكار، ولكن بصورة مستقلّة

2- عماد، عبد الغني، جريدة النهار 2005/8/12، موقع (اللبنانيون في «إسرائيل»).

3- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/9/8.

عنها، مُقرّرة الانفصال عن الجماعة لتشكّل سلفية جديدة تعمل على العودة للسلف الصالح، ولو بصورة «الجهاد» أي الحاكمية، والاعتقاد بمفهوم الولاء والبراء.

ويمكن القول إن التيّارات «الجهادية» تمثّل استمراراً لتقاليد «النظام الخاص» الذي أسّسه «حسن البنّا»، مع تطوّر أفكاره نحو صورة جماعته من ناحية، وقراءته للواقع المصري الداخلي والواقع الإقليمي، وفيما يتصل بالقضية الفلسطينية خاصّة. وكان تشكيل السلفية الجديدة التي بزغ فجرها في السبعينيات، وكرّست وجودها من حيث قوّة التزامها وتمسّكها السلوكي والأخلاقي، وأيضاً العقائدي. لكن، التواصل مع أفكار السلف بدا بشكلٍ أكثر وضوحاً وقوّة مع سيّد قطب، والذي بتشدّد أفكاره، انقلب على السلفية التقليدية، بعد أن قُدّر له أن يطالع كتب السلف القديمة. وكان الشباب الذين كوّنوا معه تنظيم عام 1965، قد وضعوا مناهج فكرية ودراسية تمثّل استمراراً لمناهج النظام الخاص.

مع مطلع السبعينيات، بدأ الاتجاه التكفيري يسيطر على المعتقدات الفكرية لبعض الحركات السلفية في العديد من البلدان الإسلامية، كنتيجة لنجاح عملية التلاقح بين السلفية الوهابية ذات البعد التاريخي والعقائدي، مع الأصولية القطبية (نسبة إلى سيّد قطب) المعاصرة، التي حدثت مع هجرة آلاف الكوادر من جماعات الإخوان المسلمين في كلٍ من مصر وسوريا إلى السعودية، هرباً من مضايقات النظامين. وقد نجح بعضهم في تبوّء مراكز مهمة في قطاعي التعليم والتربية، فحصل نوع من التكيّف بين المدرستين، نتج عنه ما عرف بالإتجاه «السروري» ـ نسبة إلى محمد سرور بن نايف زين العابدين ـ الذي مزج السلفية الوهابية بالأصولية القطبية، وتبنّى فكرة تكفير الآخر، وأسلوب الاغتيالات والعمل المسلّح. وفي هذا السياق، تعاطف محمد

سرور مع حركة جهيمان العتيبي - قائد المجموعة التي احتلّت الحرم المكّي الشريف عام 1979 - كما تضامن مع التنظيمات الإسلامية التي تعتمد العنف كوسيلة لتغيير الأنظمة الحاكمة في البلدان الإسلامية. وشكّل الغزو السوفياتي لأفغانستان محطّة لانطلاق الحركات «الجهادية»، لا سيّما تلك التي تمّت برعاية أميركية، ومباركة العديد من الدول الإسلامية، وفي طليعتها المملكة السعودية وباكستان[4].

وإضافة إلى العوامل التي أشرنا إليها آنفاً، فإن الحركات السلفية المتشدّدة تتغذّى من ثلاثة منابع أساسية: فكرية، إجتماعية وسياسية.

من خلال عملية المزج هذه، إستطاعت السلفية «الجهادية» الإنتشار بقوّة في المملكة العربية السعودية، فيما أخذت المطبوعات السلفية تنتشر بسرعة. وكان الشعور بالحنين لأفكار السلف الصالح منتشراً بين الشباب، في وقتٍ اعتبرت هذه الحالة القطبية أن صورة الإخوان الجديدة والمعدّلة لا تقارن بصورة السلف الذين هم خير القرون، وهم صورة الالتزام بالمنهج الإسلامي بشكل كامل، وليسوا بصورة الإخوان التي تُعدّ شكلاً من أشكال التكيّف مع الحضارة الحديثة والواقع الجاهلي، أكثر منها تعبيراً عن مواجهته أو مقاومته.

فسيّد قطب كان يدعو أتباعه إلى الانسحاب من أخلاقيات البربرية الروحية للمجتمع الحديث، وقتال هذا المجتمع حتى الموت، لأنه بسبب عدم تطبيق الشريعة في العالم الإسلامي، لم يعد إسلاميًا، وعاد إلى الجاهلية، معتبراً أن المسلمين بحاجة لإقامة «دولة إسلامية حقيقية» تطبّق الشريعة الإسلامية، لتخليص العالم الإسلامي من أيّ تأثيرات لغير المسلمين، كالإشتراكية والقومية[5].

4- مجلة الرأي الآخر، العدد 48، 2010/9.

5- شبكة الدفاع عن السنّة - 2012/9/7.

هذا النهج العنيف أدّى لاحقاً إلى حالة من الانشقاقات في الصفّ الإخواني، فبرزت عدّة حركات سلفية في مصر، ولِدت من رحم جماعة الإخوان. ويعود السبب في ذلك إلى تجميد «الجهاد» في منظور هذه الجماعة والتي أخذته بشكل رمزي، وإن كانت تؤمن به، حيث نشأت جماعة «الجهاد» المصرية، التي تحالفت مع الجماعة الإسلامية في عملية اغتيال أنور السادات (عام 1981).

لقد لاقت كتابات سيّد قطب صدىً كبيراً في نفوس العديدين من «مشايخ» السلفية، كأيمن الظواهري وأسامة بن لادن، ولدى الجماعات السلفية «الجهادية» المتطرّفة عموماً، والتي كان لها أثر بارز في تطوّر الحركة السلفيّة المتطرّفة عموماً، وتنظيم القاعدة خصوصاً، خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، إلى جانب ظهور حركات سلفية أخرى أقلّ تطرّفاً. وقد ذهب البعض إلى الادّعاء أنه لولا كتابات سيّد قطب، لما نشأت «القاعدة» وشبيهاتها أصلاً.

ثانياً: القاعدة كأبرز تنظيم للسلفية «الجهادية»

إنْ كانت فكرة القوّة من الأدبيّات المتجذّرة في أفكار السلفيين، إلّا أن بروزها بشكل فاعل وواقعي كان على يد سيّد قطب الذي صاغ نظرية السلفية «الجهادية» في الستينيات من القرن الماضي، بعد انقلابه الفكري في عهد جمال عبد الناصر سنة 1957. وكان هذا الانقلاب ثورة على السلفية التقليدية التي حادت عن المسار الحقيقي لنهج السلف الصالح الذي كان ينادي «بالجهاد» ضدّ جوْر الحاكم، والدعوة إلى الحكم الإسلامي.

وقد جاء من يحمل هذا النهج السلفي «الجهادي»، وخاصةً في الثمانينات من القرن الماضي، مع أبرز الرموز التي شاعت أسماؤها على طريق السلفية

«الجهادية»، أمثال أبو محمد المقدسي، عبد القادر عبد العزيز، أبو قتادة المصري، أبو مصعب السوري، وأيمن الظواهري. وفي خطوة للمّ الشمل بين السلفيين العرب وغير العرب، تمكن الشيخ المتشدّد عبدالله عزّام من تأصيل بعض الأساسيات الفكرية لهذا النهج، مُكرّساً هذا المصطلح من موقعه «الجهادي» في أفغانستان عند خروج الجنود الروس منها.

وبما أن السلفية كانت وليدة الحكم الجائر، وبالرغم من العلاقة الوثيقة ما بين مملكة آل سعود وما بين السلفية «الوهّابية»، ولما للمملكة من دور أساسي في نشأتها وتكريس مبادئها، إلّا أن تحوّلات كثيرة طرأت على بعض العقول السلفية، وخاصّةً بعد استفحال آل سعود في السلطة، وانتشار السلفية في بلدان عربية أخرى عانت من جور الحكّام فيها، حيث انبثقت السلفية «الجهادية» من رحم السلفية التقليدية؛ وهي كانت بمثابة خروج عن الخطّ السلفي التقليدي الذي التزمه أصحابه (السعوديون) منذ أن قضى عبد العزيز آل سعود على تمرّدات حركة إخوان من أطاع الله، حيث انتقدت السعودية جماعة الإخوان المسلمين، معتبرةً أنّ جميع المشاكل التي تعاني منها المملكة هي من إفرازات هذه الجماعة، والتي بحسب زعمها أنّ الإخوان تآمروا على المملكة، وكانوا ناكري الجميل، بعدما وفّرت لهم المأوى والملاذ[6].

وقد تمثّل هذا التيار الجديد بالسلفي الوهّابي السعودي أسامة بن لادن، والأصولي «القطبي» المصري أيمن الظواهري، وقبله عبد الله عزّام، الإخواني الفلسطيني الذي تأثّر به أسامة بن لادن كثيراً، وكان له تأثير مميّز أيضاً على «الأفغان العرب»، في تحالفٍ مثّل بشكل لافت امتزاج تيّارين على أرض «الجهاد» في العام 1998، في إطار جبهة أعلنت أنّ الخطر الداهم على

6- عماد، عبد الغني، الحركات الإسلامية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، (2013).

الإسلام ليس في الأنظمة القريبة، وإنما في التحالف الصهيوني ـ الأميركي، وأنّ الفريضة الراهنة هي المواجهة مع أميركا واليهود وحلفائهما، وليست المواجهة مع الحكّام[7].

لقد تأثّر المنظّرون السلفيون بغيرهم من مفكّري الجماعات الأصولية المتطرّفة، التي كانت بدأت بالنموّ في مصر أساساً. وكانت آراء سيّد قطب قد لاقت قبولاً لدى بعض هؤلاء السلفيين في سبعينيات القرن الماضي، إلى جانب تأثّرهم بأفكار أبي الأعلى المودودي، ما أدّى إلى نشوء فكر سلفي جديد تأطر تنظيمياً في جماعات عدّة، أهمها جماعة الجهاد بزعامة أيمن الظواهري. وهنا التقى هذا الأخير بأسامة بن لادن الذي كان من المتأثّرين أيضاً بسيّد قطب، الملهِم الأوّل له.

قام بن لادن بحمل هذا الفكر السلفي المتشدّد معه إلى ساحة «الجهاد الأفغاني». وبدخول عبدالله عزّام على الخطّ، مُنظّراً لفكرة «الجهاد» كأهم فرضٍ من فروض العين، اكتملت معالم هذا الفكر. وفي العام 1988، طلب عبدالله عزّام من أسامة بن لادن أن يدير سجلّ «المجاهدين» العرب في حرب أفغانستان ضدّ الاحتلال السوفياتي آنذاك، وتشكيل مكتب خدمات، أطلق عليه اسم سجلّ القاعدة. وقد أخذ هذا التنظيم بالبروز تحت مسمّى القاعدة. وبعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان واغتيال عزّام، عاد بن لادن إلى بلده السعودية، واعتزل السياسة. إلاّ أن الغزو العراقي للكويت، وطلب السعودية الدعم الأميركي لصدّ العدوان، أثار حفيظة بن لادن حول الاستعانة بالكفّار، في وقتٍ كانت القوّات السعودية جيّدة التسليح ولكنها أقلّ عددًا، مقارنة بالقوّات العراقية. حينها، عرض بن لادن خدمات «مجاهديه» على الملك فهد

7- المرجع السابق.

بن عبد العزيز لحماية المملكة من الجيش العراقي؛ لكن الملك السعودي رفض عرض بن لادن، واختار بدلاً منه السماح للقوّات الأمريكية والقوّات الحليفة بالانتشار على الأراضي السعودية. وهو ما أثار غضب بن لادن، لأنه كان يؤمن أن وجود القوّات الأجنبية في «أرض الحرمين» يُعتبر انتهاكاً للأراضي المقدّسة. وبعد أن انتقد علناً الحكومة السعودية لإيوائها الجنود الأمريكيين، نُفي إلى السودان، وسُحبت منه الجنسية السعودية.

بعدها، اندفع أسامة بن لادن، ومن معه من «الإسلاميين» العرب، إلى توسيع عمل «القاعدة» نهاية سنة 1988 م ـ التي كان هدفها «الجهاد» من أجل تحرير أفغانستان من السوفييت ـ ليشمل «الجهاد من أجل إقامة الشريعة مع حركة طالبان، في مواجهة العلمانيين والقوميين وبعض الإسلاميين ممّن ينتمون إلى الفكر الإخواني. وكان هذا التحوّل هو محور اتحاد جماعة «الجهاد الإسلامي المصرية» بجماعة تنظيم القاعدة الإسلامي العربي، ليكوّنا تنظيم قاعدة الجهاد الدولي[8].

بين عامي 1992 و1996، استقرّ أسامة بن لادن في السودان، وكان ذلك بناءً على دعوة من الدكتور حسن الترابي. وقد استغلّ بن لادن وجوده هناك ليقدّم «خدمات» للحكومة السودانية، في وقتٍ أنشأ فيه معسكرات لتدريب المقاتلين، مُشكّلاً جناحاً عسكرياً بالاتفاق معٍ أيمن الظواهري[9].

إذاً، شكّل أتباع الظواهري وجماعة «الجهاد الإسلامي» المصري النواة الرئيسية لتنظيم القاعدة، مع استمرارهم في القيام بعمليات منفصلة ضدّ الحكومة المصرية. ففي عام 1993، قُتلت تلميذة صغيرة في محاولة فاشلة

8- موقع مدوّنة السلفية والسلفيين، 2013/12/1.

9- موقع أنا المسلم، 2005/5/14.

للجهاد الإسلامي لاغتيال رئيس الوزراء المصري عاطف صدقي، ممّا أثار الرأي العام المصري ضدّ هذه الجماعة. وكانت الشرطة قد ألقت القبض على أكثر من 280 من أعضاء الجهاد، أعدِم ستّة منهم لاحقاً. وفي عام 1995، فشلت «الجهاد» في محاولة اغتيال الرئيس المصري (المخلوع) حسني مبارك، والتي دفعت بالحكومة السودانية إلى طرد الجماعة في مايو/ أيار 1996 من السودان.

وبعدما أعلنت السودان أن بن لادن وجماعته لم يعد مُرحّباً بهم في أراضيها، ونتيجةً لقيام «القاعدة» بسلسلة من العمليات والتفجيرات، صدرت ردود فعل عربية ودولية بتوحيد الجهود لمكافحة تهديد هذا التنظيم العالمي. وعلى أثر ذلك، توجّه أسامة بن لادن وأيمن الظواهري و125 كادراً معهما إلى أفغانستان عام 1996، لتستقبلهم حركة طالبان المتطرّفة، والتي كانت تسيطر على البلاد، مُخصّصة مناطق ذات حكم ذاتي لتنظيم القاعدة لإقامة مقرّاته، حيث أمّنت لعناصره الحماية، ولتشكل أفغانستان مركز القاعدة الأوّل والملاذ الآمن للقاعدة. ومن هناك أخذت نشاطات القاعدة تتّسع شيئاً فشيئاً، حيث وجّهت دعوة القتال لتشمل كلّ الأمّة الإسلامية في مواجهة الولايات المتحدة الأميركية[10].

وكان الظواهري قد توجّه إلى اليمن، حيث قام بإنشاء معسكرات تدريبية، وكانت أعداد المقاتلين تتزايد، وذلك من خلال توافد كوادر القاعدة إلى اليمن، من أفغانستان ومصر والسودان وإيران وبعض الدول الأفريقية، كالصومال وكينيا وأوغندا. وبسبب «نجاحه»، اختير الظواهري قائداً ميدانياً لتنظيم القاعدة. وكانت الجهود من أجل توحيد كافة الشبكات الإسلامية

10- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة ـ 2014/9/8.

المسلّحة على مستوى العالم، حيث تشكّلت هيئة قيادة عليا للتنسيق بين مختلف هذه الشبكات.

وأمام اتساع رقعة النشاطات، كان لا بدّ من إدارة مركزية، ناهيك عن وضع برنامج عمل واسع ليشمل كلّ القدرات والطاقات، حيث توحّدت هذه الجماعات من خلال توقيع قادتها على بيان تحت عنوان (الجبهة العالمية لقتال اليهود والأمريكان). وقد بلغ عدد هذه الحركات «الجهادية » في أفغانستان 14 حركة مستقلّة عن بعضها، وذلك قبيل إعلان الولايات المتحدة الحرب على حركة طالبان الأفغانية.

وكان لتنظيم القاعدة فروع فيما بعد في البلاد العربية: ليبيا (الجماعة الإسلامية)، المغرب (الجماعة الإسلامية المجاهدة)، مصر (جماعة الجهاد، وأميرها أيمن الظواهري) و(الجماعة الإسلامية)، الجزائر(تجمّع المجاهدين الجزائريين)، تونس (تجمّع المجاهدين)؛ بالإضافة إلى (تجمّع المجاهدين) في الأردن وفلسطين. كما تجاوزت فروعها الجغرافيا العربية، لتشمل أوزبكستان وصولاً إلى تركستان الشرقية وتركيا.

كما انتشرت «القاعدة» في بلاد المغرب العربي، مثل موريتانيا وليبيا والمغرب وتونس ومالي نيجيريا، حيث تسود علاقات تعاون قوية بين الحركات التي ينضوي أتباع القاعدة تحت لوائها، في الوقت الذي ينشط التنظيم في الجزائر حيث ينتشر المقاتلون المتشدّدون في الأرياف والجبال.

وتحت عنوان «تحرير المغرب الإسلامي من الوجود الغربي ـ الفرنسي والأمريكي» وكلّ من ينضوي تحت لوائه من الأنظمة المرتدّة، وحماية المنطقة من الأطماع الخارجية وتحقيق الدولة الإسلامية، إنبثقت القاعدة في بلاد المغرب العربي من جماعة «السلفية للدعوة والقتال» الجزائرية، التي وِلدت

بدورها من رحم الجماعة الإسلامية المسلّحة، والتي كانت قد أعلنت عن انضمامها إلى تنظيم القاعدة في العام 2006 [11].

وقد أخذت هذه الحركات التابعة لتنظيم القاعدة كفروع لها في بلاد المغرب العربي، شكلاً تنظيمياً متأطراً ضمن أجنحة مختصّة، تعمل كلٌّ حسب مهامها: الجناح الإعلامي، مجلس الأعيان، إمارات المناطق، وهيئة الجند؛ وهو هيكل استحدثته القاعدة لدمج مجموعة السرايا والكتائب في هيكل واحد.

وكانت لهذا التنظيم مهام عسكرية، لا أكثر. فمن أولوياته الإنقلاب. لذلك، فإنّ إمارة التنظيم هي إمارة حرب حسب التوصيف الفقهي للجماعة لا إمارة دولة، لمواجهة الغرب الصليبي وحلفائه المحلّيين من الأنظمة الحاكمة؛ هذا بالإضافة إلى بعض المهام الثانوية التي يتولاّها فرع الدعوة والإرشاد، وفرع البحوث العلمية والفتاوى الشرعية، وإعداد أفراد التنظيم فكرياً وعقائدياً.

وفي إطار التنسيق بين الفروع في مختلف بقاع «الأرض الإسلامية»، تأتي مهمّة مسؤول العلاقات الخارجية في التنظيم، ألا وهي فتح قنوات الاتصال مع شتّى الهيئات والأفراد خارج البلاد، بالتنسيق مع أمير التنظيم، بهدف التعريف بأهداف وغايات التنظيم، ومحاولة استقطاب أكبر عدد ممكن من المؤيّدين والداعمين، والقيام بمهمة التفاوض مع الآخرين بعد تكليف أمير التنظيم بذلك. وهي كانت تعمل تحت إمرة تنظيم القاعدة المركزي بقيادة أسامة بن لادن سابقاً، وأيمن الظواهري حالياً.

وتتّسم الهيكلية التنظيمية للقاعدة في بلاد المغرب العربي، بالشمول والتكامل، من خلال المهمّات والواجبات التي تتولاّها الهيئات والأقسام، ومن خلال سعيها نحو إقامة عمل مؤسّسي يشبه إلى حد كبير عمل مؤسسات

11- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

الدولة، لتتوافق مع تنظيم القاعدة في كلّ البلدان العربية والإسلامية[12].

ومع وجود علاقة وثيقة بين القاعدة وأخواتها، إلّا أن ذلك لم يعنِ ذوبانها في تنظيم واحد، حيث حافظت كلّ واحدة على كيانها واستقلاليتها وموضوعها «الجهادي» الخاص بها. واستمرّ هذا الوضع حتى النصف الثاني من التسعينيات، عندما تعرّضت مشاريع «الجهاديين» لنكسة تلو الأخرى[13].

وقد تمثّلت لحظة الذروة في نشاطات القاعدة في تفجيرات 11 سبتمبر/أيلول 2001م في الولايات المتحدة، وما تلاها من تفاعلات دولية وإقليمية ما يزال كثير منها ممتداً في الزمان والمكان حتى اليوم، حيث توزّعت كوادر هذا التنظيم الإرهابي على قسمين: قسم يضمّ بن لادن وأيمن الظواهري وبعض الكوادر الذين استقرّوا في منطقة القبائل على الحدود بين باكستان وأفغانستان، وقسم آخر في المناطق الشمالية للعراق التي كانت تسيطر عليها آنذاك جماعة أنصار الإسلام الكردية، والتي أمّنت لهم المأوى. وعندما بدأت الحرب الأميركية على العراق (2003)، وجّهت القوّات الأميركية ضربات جويّة عنيفة لمواقع الجماعات التكفيرية التابعة لتنظيم القاعدة في شمال العراق. وعلى أثر ذلك أخذت هذه الجماعات بالتوجّه إلى بغداد، وإلى بعض المدن العراقية (السنّية)، لتشكّل هذه الظروف فرصة لإعلان البيعة لتنظيم القاعدة، حيث رسّخت هذه الواقعة وجود القاعدة في العراق؛ ومنها نشّطت القاعدة جبهاتها لتشمل مختلف البلدان[14].

وكانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرارها بشنّ حربها الشاملة على

12- موقع الخبر، 2011/4/9.

13- الطويل، كميل، القاعدة وأخواتها، دار الساقي، بيروت، ط1، (2007)، ص10/9.

14- موقع أنا المسلم، 2005/5/14

القاعدة، وذلك انطلاقاً من معقلها في أفغانستان والقضاء على زعيمها. وهي طلبت من حكومة طالبان تسليم بن لادن. وبعد تلكّؤ الأخيرة، استطاعت أميركا بعد ذلك بوقت قصير الإطاحة بحكم طالبان، لتغتال بن لادن فجر الإثنين، في 2 مايو / أيار من سنة 2011 في منطقة أبوت آباد، والتي تبعد 120 كلم عن إسلام آباد، خلال عملية أشرفت عليها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، ونفّذتها القوّات الأميركية، عبر اقتحامها لمجمّع سكني، كان بن لادن يقطن فيه مع أسرته، حيث وقع اشتباك بين رجاله وبين القوّات الأميركية، نجم عنه مصرع بن لادن برصاصة في رأسه[15].

لكن هناك من يُنكر قتل بن لادن على يد القوّات الأميركية، مع ورود معلومات عن تفجيره لنفسه، حتى لا يتمّ اعتقاله، حيث كان يحمل حزاماً ناسفاً طوال الوقت في آخر فترة من حياته[16].

ومع مقتل بن لادن، اعتقد العديد من الباحثين والمهتمّين بأنّ نشاط تنظيم القاعدة سيشهد حالة من الجمود، مع تخفيف حدّة المواجهة والصراع بين الغرب والإسلام، بما يمكن أن يعكس تأثيره على الجماعات السلفية «الجهادية»، كون بن لادن يمثّل محور هذا الصراع. وكان هذا التنظيم قد تمدّد أفقياً، وشهد انقساماً على ذاته إلى تنظيمات صغيرة أخرى في مختلف مناطق العالم. ومن أبرز هذه التنظيمات "القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي". وهذا الانقسام تسبّب في ظهور قيادات ميدانية أخرى بعد موت بن لادن.

إستراتيجية جديدة اعتمدتها «القاعدة» بعد مقتل بن لادن، وتصاعد الهجمات الأميركية (الجوّية خصوصاً) على معاقل القاعدة وطالبان في

15- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/9/8

16- موقع العربية نت، 2013/5/29.

باكستان وأفغانستان، حيث شكّلت خلايا نائمة، تحت اسم «الذئاب المنفردة» أو «الجنود التائهة»، يعمل أفرادها بصورة مستقلّة في بلدانهم، لتحقيق أهداف القاعدة بصورة أفضل!

وهذه الاستراتيجية الجديدة أحدثت تحوّلاً هائلاً في التنظيم. فبعد أن كان تنظيماً إقليمياً، أصبح تنظيماً عالمياً، استطاع أن يستقطب عدداً كبيراً من أتباع السلفية «الجهادية». و«القاعدة»، في أقطار مختلفة، كانت تعمل بشكل منفرد تحت مسمّيات مختلفة واستراتيجيات متنوّعة، تزامناً مع ظهور تنظيم «دولة الإسلام في العراق والشام» (داعش) كأبرز فرع من فروع القاعدة، والذي استقلّ عنها وتناقض معها فيما بعد.

فأفكار «القاعدة» وعقائدها هي الأعمدة التي عليها ستبقى هذه الحركات قائمة، وليس للتنظيم من دور في بقائها، لأنه في الأصل لا يجمعها تنظيم هيكلي ذا قيادة مركزية. بل كانت تتمتع بالاستقلالية في التنظيم والاستقطاب، والعلاقة التي تجمعهم هي علاقة موالاة[17].

ثالثاً: الجماعات السلفية تكفّر الشيعة

"تميّزت" الجماعات السلفية بانتهاجها سياسة التكفير، والتي طالت كافة المسلمين، وعلى وجه الخصوص الشيعة منهم. فالسلفية نظرت إلى طائفة الشيعة بعين الرّيبة والتشكيك بإسلاميتها، وحتى إخراجها من الملّة، ووضعتها في صفّ اليهود والنصارى. بل أكثر من ذلك، فضّلت الجماعات السلفية اليهود على الشيعة!

هذه السياسة التكفيرية المنتهجة من قِبل السلفيين اليوم، كان قد أسّس

17- الكحل، سعيد، موقع الصباح، 2011/5/13.

لها أحمد بن حنبل، واعتنقها قبله ابن تيميّة، وهي جُدّدت على يد محمد بن عبد الوهّاب. فهؤلاء وضعوا المبادئ التي على أساسها كفّروا الشيعة. وأولى الخطوات المُمنْهجة لهذه السياسة، كانت إصدار الفتاوى بالتكفير وتلفيق الأكاذيب والأضاليل حول الشيعة.

وكان أحمد بن حنبل قد سمّى الشيعة بالرّافضة، بقوله: «الرّافضة ليست من الإسلام بشيء». وزعم ابن تيميّة «أنّ أصل بدعة الشيعة الإثني عشرية زندقة وإلحاد، وأن تعمُّد الكذب كثيرٌ فيهم، وهم يُقرّون بذلك، حيث يقولون ديننا التقيّة، وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما في قلبه؛ وهذا هو الكذب والنفاق. فهم في ذلك كما قيل: رمتني بدائها وانْسلّت»![18]

والأمر لم يقف عند هذا الحدّ. بل كانت الفتاوى التكفيرية تصل إلى مستوى منع التواصل مع الشيعة، أو إقامة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية معهم، وكذلك اتهامهم بسوء الوجوه من كثرة الذنوب، بحسب مزاعم السلفيين، وأنهم أحقُّ بالقتال من الخوارج. وفي هذا الصدد يقول البخاري: «ما أبالي إن صلّيت خلف الجُهمي والرّافضي، أم صلّيت خلف اليهود والنصارى، ولا يُسلّم عليهم ولا يُعادون ولا يُناكحون ولا يُشهدون ولا تُؤكل ذبائحهم». ويقول ابن قيّم الجوزية: «إذا أردت أن ترى ظُلمة المعاصي، فانظر إلى وجوه الرّافضة». ويقول ابن تيميّة: «إنهم شرّ من عامّة أهل الأهواء، وأحقّ بالقتال من الخوارج»![19]

هذه الأفكار التكفيرية العمياء للجماعات السلفية ذات الفكر المتخلّف

18- صقر، شحاتة محمد، «الشيعة هم العدوّ فاحذرهم»، موقع فرسان السنّة، 2009/9/3.

19- شبكة «سحاب» السلفية.

اتخذت من العداء للشيعة شعارها الدائم، وهي سعت جاهدة لزرع بذوره الفاسدة في النفوس. وكانت السلفية (بشقّيها التقليدي والجهادي) هي الرّاعية والمُحرِّضة الأولى على اعتناق مثل هذه الأفكار والعقائد الغريبة عن الإسلام السمح والمنفتح.

بالإضافة إلى ذلك، اعتبِر الشيعة مشركين وعبّاداً للأصنام، لتشييدهم الأضرحة على القبور أو لتوسّلهم بالأولياء، حيث جاء في فتاوى الأئمّة النجدية 1\55\56، «... لقد اتخذت الرّافضة المشهد الحسيني وثناً، بل رباً مُدبِّراً، وخالقاً مُسيِّراً، وأعادوا به المجوسية، وأحيوا به معاهد اللات والعُزّى، وما كان عليه أهل الجاهلية...، على غاية من الجهل،... من البدع الرّافضية والأحداث المجوسية، والمقامات الوثنية، يُضاد ويُصادم أصول الملّة الحنيفية»[20].

وبالرغم من رأي عموم المسلمين حول موضوع بناء الأضرحة، وزيارة قبور الأولياء الصالحين، وقد تطرّقنا إلى هذا الموضوع سابقاً، وبيّنا عدم مخالفته لأحكام الدين الحنيف، وذلك بحسب كلّ المذاهب الإسلامية، إلاّ أنّ السلفيين لم يكفّوا عن بثّ سمومهم، والتعرّض للشيعة بسبب عقيدتهم ونظرتهم المميّزة لآل البيت (ع).

وبعد أن كانت السلفية طريقة لأفراد، صارت سياسة مُتّبعة من قِبل دولة، بعد أن اعتنقتها السعودية كمذهب رسمي للدولة، ووضعتها في قلب برامجها التربوية في المدارس. وبذلك تكون السعودية (الوهّابية) قد كرّست السياسة العنصرية والانتقائية، ونشر حالات الحقد والعداء بين الطوائف أو المذاهب

20- الفخراني، اليماني، النزعة التكفيرية في فكر الوهّابية، ط1، مكتبة مدبولي 2012، القاهرة، ص 187.

الإسلامية، وهذا ما يظهر في تعاملها الراهن مع المواطنين الشيعة في البلاد. هذه الرؤية العنصرية طبّقتها الحكومات السعودية المتعاقبة، حيث كانت تأخذ ضريبة سنوية إضافية، بمثابة جزية، كتلك التي يفرضها المسلمون على الذمّيين، وذلك لتمويل الحملات العسكرية بما يلزمها، على أساس أن الشيعة لا يُعتمد عليهم كجنود في الحروب! و لم يقتصر النفي والتعامل على قاعدة أنهم غير مسلمين، بل وصل الأمر إلى إصدار فتاوى وهّابية تبيح دماءهم، واعتبارهم من أهل الكفر والمروق، وأنهم لا بدّ من أن يبايعوا من جديد على الإسلام، وأن يُمنعوا من ممارسة شعائرهم الدينية في الحسينيات، مع إجبارهم على الصلاة في مساجد السنّة. وكان يتم محاصرتهم في البيوت، ومن ثمّ قتلهم، حيث قُتِل منهم الكثير في إقليم الإحساء[21]. وهذه السياسة استمرّت حتى الآن، حيث يعاني الشيعة من التضييق والملاحقة من قِبل السلطات السعودية. ومع غياب الديمقراطية وحرّية الرأي، فإن القمع والتوقيف العشوائي للشيعة مستمرّ، وخاصة لرجال الدين، واستخدام العنف ضدّهم[22].

هذه الممارسات وغيرها، أسّست لما يسمّى بالحملة «التطهيرية» للإسلام من أهل البدع، والتي تسبّب الفرقة بين المسلمين. وما زلنا نشاهد تلك الفتاوى اليومية التي ترمي بسمومها باتجاه المسلمين، وخاصةً منهم الشيعة، حيث انتشرت ظاهرة العمليات الإنتحارية التي يقوم بها شبّان يفجّرون أنفسهم ضدّ الشيعة، بعد تعبئتهم بأفكار وأوهام عن دخولهم الجنّة وحصولهم على الحور العين جزاء قتلهم للرافضة والمرتدّين والكفّار!.

وقد وضِعت استراتيجية تكفيرية شاملة تحت عنوان «الجهاد العالمي إزاء

21- موقع هسبريس، 2009/9/25.

22- موقع naharnet 2012 /7/10.

العقيدة الشيعية»، زعم فيها قادة هذا «الجهاد» بأن الشيعة كفّار وأعداء ألدّاء للإسلام السنّي، بحيث لا يمكن أن يكون هناك تعايش ما بين السنّة والشيعة، لما فيه من تحدٍ لمشروعية الآخر ومرجعيته الدينية[23].

لقد تجاهلت السلفية المثل القائل (عدوّ عدوّك صديقك، وصديق عدوّك عدوّك). بل هي آثرت صداقة العدوّ الأول والأخير، ألا وهو «إسرائيل»، على صداقة أبناء الدين الواحد، وعملت على كسب ودّ الولايات المتحدة الأميركية، الداعمة الأولى لهذا العدوّ[24]. كما خالفت السلفية الشعارات التي أطلقتها، ولا سيّما تلك التي تنادي بمحاربة أعداء الدّين؛ بل على العكس، هي قامت بإصدار الفتاوى التي تُحرّم الدعاء للمقاومة الإسلامية «حزب الله» في لبنان، في حربها مع «إسرائيل» عام 2006، فقط لأن هذه المقاومة شيعية! وبدل حثّ المسلمين على تقديم الدعم - ولو المعنوي - لهذه المقاومة، قامت السعودية من خلال «مشايخها» بفتح جبهات كلامية شعواء ضدّ المقاومة في ساحات الإنترنت، وعبر وسائل الإعلام، بإصدار الفتاوى الشرعية كسلاح مؤذٍ للشيعة من نوعٍ آخر. فقد برز الشيخ عبد الله بن جبرين مُلقياً سيف فتواه بتحريم نصرة حزبِ الله، لأنه «حزب رافضي». كما حظّر «الانضواء تحت إمرة الحزب والدعاء له بالنصر والتمكين»؛ بل هو دعا أهل السنّة إلى «التبرّؤ منه وأن يخذلوا من ينضمّون إليه»! وتبعت هذه الفتوى فتوى أخرى للدكتور ناصر العمر (المشرِف العام على موقع المسلم نت)، اعتبر فيها أن حزب الله يخدم "أجندة إيران في المنطقة"، وأنه "جزء من الموقف الإيراني الذي يذبح

23- موتمر هرتسيليا السنوي (2011)، الكابوس الشيعي، مركز باحث للدراسات، ط1، ص162.

24- المرجع السابق، ص 162.

المسلمين في العراق»، على حدّ زعمه[25].

وقد وصل الأمر بالسلفيين في مصر (بعد ثورة 25 يناير تحديداً 2011) إلى رفض إقامة أيّة علاقة مع الشيعة، ولو على حساب المصلحة العليا للبلاد، والإصرار على ترسيخ القطيعة مع إيران (الشيعية)، وعدم السماح للسّياح الإيرانيين للقدوم إلى مصر، خشيةً من التأثير الفكري الشيعي على المصريين، وانتشار التشيّع في صفوفهم، مع التحذير من الخطورة الكامنة وراء فتح أيّ نوع من العلاقات مع إيران، والتخوّف من إيجاد خلايا شيعية تعمل لتقسيم المجتمع المصري. وكانت خطواتهم لتفادي هذه الخطورة تتّجه الى عقد مؤتمرات للحدّ من المدّ الشيعي، بحسب زعمهم[26].

وانطلاقاً من تلك النظرة السلفية الانعزالية والمتخلّفة للشيعة، وإلصاق صفة الكفر والارتداد بهم، ينظر السلفيون إلى إيران ـ الجمهورية الإسلامية الشيعية ـ نظرة ناقمة وحاقدة ورافضة لقيام أيّ نوع من العلاقات معها، سواء منها الاقتصادية أو الثقافية أو الإجتماعية..

لقد باتت إيران بالنسبة للسلفيين العدوّ الأكبر، الذين يخشون من تأثيره على الشارع السنّي، في ظلّ المساعي التي تقوم بها إيران من أجل بناء قدراتها العسكرية وتحقيق طموحاتها في بسط نفوذها السياسي والاقتصادي والعسكري على امتداد المنطقة العربية، وخاصة على الدول الخليجية! وفي مقالة كتبها المنظّر التكفيري أبو بصير، نُشرت عام 2007، يصف فيها إيران بأنها «كافرة ومعادية ومهدّدة بالخطر»، ويحلّل سياستها ونواياها وطموحاتها الإقليمية وعلاقاتها مع الدول والكيانات والأقلّيات الشيعية التي تشكّل كتلاً

25- موقع CNN بالعربية، 2012/7/28.

26- موقع الوطن، 2013/5/10.

متحالفة مع الإيرانيين في المنطقة![27].

وينظر أبو بصير إلى إيران (الشيعية) على أنها جزء لا يتجزّأ من جملة أعداء الإسلام. فهي ـ بحسب زعمه ـ تعمل ضدّ الإسلام السنّي، بالتعاون مع اثنين من مكوّنات التشكيلة المذكورة، وهما الأنظمة الإسلامية «الكافرة» في الداخل والقوّات والأنظمة «الصليبية» في الخارج. وبالإضافة إلى ذلك، تؤدّي إيران دوراً أساسياً في جسْر المسافة بين هذين الطرفين وإيجاد معسكر حرابي عالمي مُعادٍ ضدّ السنّة[28]!

هذه العدوى السلفية التكفيرية كانت لها بصمتها في باكستان أيضاً. فالمواجهات وأعمال العنف ضدّ الشيعة لها تاريخها هناك، حيث يسقط الشيعة بأعداد متزايدة بسبب التفجيرات التي يتعرّضون لها من فترة لأخرى، من قِبل جماعات سلفية متطرّفة متحالفة مع تنظيم القاعدة. ويُعتبر إقليم بلوشستان الباكستاني أبرز المناطق التي تشهد أعمال عنف ضدّ الشيعة في هذا البلد المؤلّف من أكثرية سنّية[29].

ولا ننسى العراق، البلد الذي يتعرّض يومياً لمثل هذه الأعمال الإرهابية. فالقتل الجماعي والتفجيرات استهدفت وتستهدف التجمّعات السكنية والمدنية الشيعية، مثل الأسواق والأحياء السكنية[30].

وقد انتقلت حركة التفجيرات الإرهابية إلى لبنان، بموازاة الحملات التكفيرية، بعد احتدام الموقف في سورية، وتكبّد الجماعات السلفية المتطرّفة

27- مؤتمر هرتسيليا، م.س، ص136.

28- مؤتمر هرتسيليا، ص 137.

29- موقع الفجر، 2014/1/24.

30- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، 2014/1/25.

الخسائر الفادحة، حيث ارتأت نقل المواجهة إلى الساحة اللبنانية، ولكن بأسلوب العمليات الانتحارية والسيارات المفخّخة التي تطال الأبرياء من اللبنانيين العُزّل، في المناطق الشيعية خصوصاً، كردٍ على قتال حزب الله لتلك الجماعات الإرهابية في سوريا. وقد أوردت بيانات أصدرتها كتائب «عبد الله عزّام» المرتبطة بتنظيم القاعدة، حول تفجيرين انتحاريين نفّذتهما ضدّ السفارة الإيرانية (2013/11) والمستشارية الإيرانية الثقافية (2014/2) تهديداً واضحاً لحزب الله والشيعة عموماً.

ومع استمرار انتهاج أغلبية السلفيين للمذهب الوهّابي المُجدّد لمقولات ابن تيميّة التكفيرية، فإن الصراع سيبقى قائماً ما بين الشيعة وهؤلاء السلفيين، لِما لهذا المذهب من قاعدة صراعية إلغائية بسبب ابن تيميّة، الذي حفل تاريخه الشخصي والفكري والسياسي والديني، بالتناحر مع كلّ الاتجاهات، والتي شكّلت جزءاً رئيسياً من التاريخ الإسلامي، الذي انتقل إلى الحاضر، بعد أن شهد صراعات دامية في المرحلة الأموية، فالعباسية، ثم العثمانية والصفوية. وأخيراً، كانت مرحلة ما بعد الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، والمستمرّة حتى وقتنا الحالي.

رابعاً: «إسرائيل» والجماعات السلفية

ما تشهده الساحات العربية من صراعات وحروب داخلية منذ "الربيع العربي" قبل أعوام، هو تجسيد لمقولة: "سحرٌ انقلب على الساحر". فمع اندلاع "الثورات" العربية، المنادية بالديمقراطية والتحرّر من الأنظمة الاستبدادية، ظهرت جماعات متطرّفة، في أصل تكوينها قمع الحرّيات، حيث لا وجود لكلمة حوار في قاموسها، ولا منطق إلاّ منطق السيف، ولا خروج على سلطة الحاكم، الذي يتّفق نهجه مع أهداف هذه الجماعات!

وكما هو معلوم، فإن أغلب الأنظمة العربية هي أنظمة ديكتاتورية مستبدّة. وهنا أسئلة عدّة تطرح نفسها: لماذا انطلقت هذه الثورات في دولٍ دون أخرى؟ وهل هناك أنواع مختلفة من الاستبداد، بحيث يفضّل واحد على آخر، أم أن هناك ازدواجية في التعامل مع الأنظمة المستبدّة؟ ولماذا استُثنيت الأنظمة السلفية الخليجية من ثورات الديمقراطية الموعودة، وفي هذا التوقيت بالذات؟

إنّ ما يحدث في المنطقة هو مسرحية وضعت لها أميركا و«إسرائيل» السيناريو الرئيسي، ووزّعتا فيه الأدوار، كلٌّ بما يناسبه. ولعلّ البعض قد يستنكر هذا التقدير، إلاّ أنّ ما يحصل على الأرض هو أقوى دليل على ذلك. فالنزاعات أو الحروب الداخلية العربية تقع في خانة المصالح الإسرائيلية. وبالرغم من الترقّب الذي تعيشه «إسرائيل»، مع حفاظها على الجهوزية الكاملة إزاء كلّ ما يحدث، إلاّ أن حالة من التفاؤل تعتريها، لما يمكن أن ينتج عن ذلك من مصلحة لها، وتحسين أوضاعها في المستقبل، وبما يؤدّي إلى انهيار فكرة القومية العربية، عن طريق أسلوب الفوضى الخلاّقة، وما يعنيه من نشوء محيط إقليمي جديد «الفوضى العارمة» حسب التسمية الإسرائيلية، بما يُبعد شبح الحرب والتصعيد الأمني عنها[31].

ولعلّ أبرز «الإنجازات» التي تحقّقت من الثورات العربية حتى الآن: التقسيم، الفتن، تفتيت الدول، إنهاك الجيوش العربية واستنزافها.. و«إسرائيل» منذ قيامها، وهي تسعى جاهدة لتحقيق مثل تلك الإنجازات! فماذا استفادت الشعوب العربية «المنتفضة» حتى اليوم؟ هل تذوّقت طعم الديمقراطية والحرّية؟ هل حصلت على الأمن والأمان؟ لا، بل هي تعيش في خضم أزمات كبرى،

31– مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014/1/24.

بدءاً من تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في دول الثورات، وصولاً إلى إدخال جيوشها في معارك لا طائل منها. وبعد أن كانت الجيوش المصرية والسورية والعراقية من أقوى الجيوش العربية، يُعمل الآن على تدمير هذه الجيوش، من خلال حشرها في حروبٍ دموية طويلة. فالجيش المصري يتقاتل مع بعض أبنائه المضلّلين، والجيش السوري دخل في مواجهات مع جماعات متطرّفة، جُنّدت من جنسيات مختلفة، لمحاربته وإضعافه، حتى يصبح عاجزاً عن مواجهة العدوّ الحقيقي. أما الجيش العراقي، فهو يحاول صدّ اختراق هذه الجماعات للعراق لمنعها من تقسيمه، والتي تعمل جاهدةً على زعزعة الأمن فيه، تمهيداً لإنشاء دولة الخلافة الإسلامية المزعومة!

إن الجهود التي تبذلها بعض الدول العربية لمساندة الجماعات السلفية المتطرّفة، لتدمير مصر، تمهّد عملياً لتحقيق الحلم الصهيوني بقيام «إسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات، وانصياعاً لأوامر أميركية، حيث تأتي قطر في رأس قائمة الدول الداعمة لمثل هذه الجماعات[32].

وفي الوقت الذي يقوم فيه المفهوم السلفي على تكفير معظم المسلمين، فإنه لا يُقرّ بكفرانية اليهود، وبأن التوراة لم تحرّف من قِبلهم، مخالفاً بذلك الآيات القرآنية الصريحة التي تدلّ على تحريف التوراة من قِبل اليهود. يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46]، وأيضاً: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة : 41]. ولقد عملَ على ترسيخ هذا الاعتقاد الأستاذ الثاني للسلفية ابن تيميّة، حيث ذكر الحافظ أبو سعيد العلائي شيخ الحافظ العراقي فيما رواه المحدّث المؤرّخ شمس الدين

32– وكالة أنباء ONA. 4 /1 /2014.

طولون في كتابه ذخائر القصر ص/96، وهو مخطوط عن ابن تيميّة، أنه قال: «إنّ التوراة لم تُبدّل ألفاظها، بل هي باقية على ما أُنزلت، وإنما وقع التحريف في تأويلها»[33]!

ولقد حذا حذو ابن تيميّة في نفي الكفر عن اليهود سيّد قطب. وهو لم يقتصر على ذلك، بل فرض على المسلمين حماية اليهود بدل معاداتهم ومحاربتهم، لأنهم أحرار في عقيدتهم، باعتبار أن كلّ الأفراد أحرار في اختيار العقيدة التي يريدون، حيث ذكر في كتابه «في ظلال القرآن»[34]، بتعليق محمّد قطب في تفسير سورة البقرة ص 240، يقول والعياذ بالله: "إنّ المسلم والكتابية يلتقيان في أصل العقيدة في الله وإن اختلفت التفصيلات التشريعية"! وفي الصفحة 295، يقول في معرض كلامه عن اليهود: «والإسلام يقوم عليهم ويحميهم، ويحمي حرّيتهم في العقيدة». ويضيف: «ثم يُطلَق الأفراد بعد ذلك أحراراً ـ بالفعل ـ في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم»[35]!

والسؤال الذي يُطرح هنا: لِما تقاتل السلفية الآخرين من المسلمين على عقائدهم وتكفّرهم في الوقت الذي تستثني اليهود، متحدّيةً القرآن الكريم، وما حقيقة هذه الازدواجية في المعايير لديها؟

الواقع أن "إسرائيل" والسلفية تسيران في خطٍ واحد. فهما يقاتلان خطّ المقاومة، وكلّ من يدعمها ويساندها، ممّا يجعل أهدافهما واحدة، لأن عدوّهم واحد. فالشيخ عبدالله التميمي، خطيب وإمام مسجد في حمص، ينفي نفياً

33– الوهّابية في العراء، تحقيق جماعة من الباحثين، ص 48.

34– المجلّد الأول، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة عشرة، دار المشرق، 1988.

35– المرجع السابق، ص57.

شديداً وجود أيّ عداوة مع «إسرائيل»، بل يعتبر حزب الله هو العدو[36]!

والوهّابية في معقِلها الرئيسي، السعودية، تنظر إلى كلّ من يعادي «إسرائيل» بعين الرّيبة. فهي تطلِق التصريحات المُندّدة بحركات المقاومة، وخاصة حزب الله في لبنان، لتشكّل بذلك غطاءً لـ«إسرائيل» ولاعتداءاتها المتتالية في المنطقة، مُظهرة المقاومة على أنها هي المعتدية، بعد أن كانت قد ساهمت في تأسيس «إسرائيل»، من خلال التبرّع الذي قدّمه عبد العزيز بن سعود، مؤسّس المملكة، أثناء لقائه مع الرئيس الأمريكي روزفلت عام 1945، لجعل فلسطين وطناء لليهود «المساكين» ـ حسب زعمه ـ والتزامه بوضع المملكة، أرضاً وثروات ومقدّرات، في خدمة الأجندة والسياسة الأميركيتين، مقابل ضمان بقاء العائلة السعودية في الحكم. والسعودية منذ ذلك الحين، وهي تحاول استرضاء الولايات المتحدة الأميركية[37].

لم يقتصر الأمر على ذلك، بل امتدّ إلى إجراء «حوارات» من جانب السلفيين، وتحديداً أعضاء في حزب النور السلفي (المصري)، مع القنوات التلفزيونية الإسرائيلية، وتحت أسماء مستعارة. وفي المقابل، كانت «إسرائيل» تسعى نحو فتح حوار مع الأحزاب المصرية الإسلامية، بعد التصريحات التي صدرت من جانب بعض السلفيين حول استعدادهم لتوقيع «معاهدة سلام» جديدة معها، بالرغم من إنكار مثل هذه الحوارات من قِبل بعض السلفيين، باعتبار أن «ما يحدث جزء من حملة التشويه ضدّ الحزب» السلفي، في الوقت الذي تؤكّدها «إسرائيل»[38].

36– موقع مدوّنة هاني، مدوّنة حول سورية والعالم، 2012/1/12.

37– موقع SyriaNow 2012/2/15.

38– موقع تلفزيون الشراع، 2013/12/20.

ومع أنّ الوهّابية السلفية إنكليزية النشأة (كما أسلفنا الذكر)، إلاّ أنّ استمراريتها أميركية، وأهدافها إسرائيلية صهيونية. إن تزامن التغيير في السياسة الخارجية الأميركية مع وصول السلفية إلى الحكم في مصر، ليس محض صدفة. فالتعاون الأميركي ـ السلفي تجاوز حدّ الدعم المالي، حيث قدّمت إدارة باراك أوباما (علناً) ما قيمته 375 مليون دولار أميركي لحكومة مرسي الإخوانية. كما أُجريت عدّة لقاءات بين مسؤولين أميركيين وقادة في جماعة الإخوان، والتي تُعتبر حلقةً من حلقات التنسيق المتواصل مع الأخوان في مصر وسوريا وتونس. هذا في الوقت الذي يُصدر فيه علماء سلفيون، من مختلف الدول العربية، فتاوى تجيز التعامل مع «إسرائيل»، باعتباره «سنّة نبوية»، مع العمل على منع صواريخ حماس خدمةً لمصالح «إسرائيل» وتوفيراً لأمنها!

وكما هو معلوم، فإن الولايات المتحدة تعمل جاهدة للحفاظ على مصالحها الاستئثارية في منطقة الشرق الأوسط، و«إسرائيل» هي الراعي الرسمي لهذه المصالح. من هنا كانت الجهود المشتركة بينهما لتكملة ما بدأته بريطانيا في المنطقة، بهدف تحقيق ما لم تحقّقه الحروب التي خاضاها معاً. ومذكّرات همفر، الرجل المخابراتي البريطاني، تثبت أن بريطانيا، ومن ورائها اليهود، عملت على تجنيد محمد بن عبد الوهّاب لزرع الفتن بين المسلمين لإضعاف الأمّة، وللتمكّن من التغلّب على العرب، من أجل إنشاء دولة لليهود في فلسطين؛ وهو الذي أسّس لمثل هذه الجماعات السلفية السائرة اليوم على دربه. وما يؤكّد هذه العلاقة الوثيقة بين السلفيين والأميركيين، وجود «وثائق أميركية» ورد فيها أن مبعوث حزب الإخوان المصري عرض على أميركا المساعدة في الاتصال مع اليهود لعقد تسوية معهم. وقد نشرت جريدة «الأيام»، العدد 2573، بتاريخ 1996/3/22، مقالاً جاء فيه: كشفت

الأدلّة عن تعاون تنظيمات إسرائيلية مع حزب الإخوان وأن اليهود يمدّونهم بالأسلحة والمتفجرات[39].

كما أن ما يحدث في سورية من صراع دموي رهيب، يثبت بأن الأيادي الأميركية والإسرائيلية ليست بعيدة عن ما يجري، بل هي في قلب الحدث، وتُعتبر الآلة المُحرّكة لأغلب الجماعات السلفية المتطرّفة والداعمة لها[40].

وفي الوقت الذي تصف فيه الولايات المتحدة «جبهة النصرة» ومثيلاتها بالإرهابية، تقدّم لها الدعم، وتمدّها بالعتاد والأسلحة، حتى شكّلت سوريا ساحة للمنافسة بين الولايات المتحدة و«إسرائيل»، لجهة إرسال الأسلحة إلى الجماعات المسلّحة المتحاربة مع النظام الداعم لحركات المقاومة، من أجل إضعافه، وبُغية حماية «إسرائيل»[41].

إن الحرب الدائرة في سورية اليوم، هي حربٌ سلفية تكفيرية على المقاومة، بما تمثّله سوريا من الشريان الرئيسي المغذّي للمقاومة، سواء في لبنان أو في فلسطين، وذلك حتى تتمكن «إسرائيل» من الحفاظ على كيانها ومشروعها. وإذا تعمّقنا في الفتاوى التي تصدر عن رموز السلفية، نجد أنهم يجهدون في السعي للحفاظ على هذا الكيان؛ بل أكثر من ذلك، هم يُفتون بعدم شرعية المقاومة في فلسطين، واعتبار أن الفلسطينيين شهداء الانتفاضة أشخاص مُنتحرون، وأن شعب الانتفاضة خاسرون؛ كما أن عليهم مغادرة بلادهم، والخروج إلى بلاد أخرى، وأنّ كلّ من بقي في فلسطين منهم فهو كافر، وأنّ هذه هي السنّة[42]!

39– الوهابية في العراء، مرجع سابق، ص 72.

40– موقع مبتدأ قبل الخبر، 2013/6/15.

41– موقع الثورة، 2013/7/11.

42– جريدة اللواء اللبنانية 93/7/7، وكتاب فتاوى الألباني، جمع عكاشة عبد المنّان، مكتبة التراث، ص18.

وفي ظلّ ما يحدث في الدول العربية، ومحاولات إسقاط الأنظمة التي تعتبرها «إسرائيل» منتهية الصلاحية، فإن الخطط الموضوعة حسب الأجندة الأميركية والإسرائيلية، تتضمن إقامة شرق أوسط جديد، تكون فيه «إسرائيل» دولة معترفاً بها من قِبل الدول العربية، بعد عقد اتفاقيات «صلح» معها. وهذا ما أطلقه المفتي السعودي ابن باز، زعيم الوهّابية في هذا العصر، عندما أجاز عقد الصلح الدائم مع اليهود بلا قيد أو شرط، وزعم أن هذا يوافق الكتاب والسنّة[43]، ممّا أفرح وزير خارجية الكيان شمعون بيريز حينها، ليطالب العرب بأن يحذوا حذوه. وقد ذُكر ذلك في جريدة السفير (94/12/23)، وكذلك في جريدة التليغراف الأسترالية، العدد 2754 [44].

إن الجماعات السلفية، سواء كانت تدري أو لا تدري، تحقّق الأهداف الصهيونية والاستعمارية بامتياز، حيث وفّرت على «إسرائيل» الكثير من الحروب والمعارك التي كانت ستخوضها مضطرّة في مواجهة العرب والمسلمين، حفاظاً منها على أمنها وكيانها.

ولعلّ ما تشهده البلاد العربية والإسلامية في هذه الأيام من مجازر تُرتكب بحقّ الشعوب المسلمة، وتحت مزاعم تطبيق الإسلام وإقامة الخلافة الراشدة، تناقض كلّ قواعد وقِيم الحرب الموضوعة من قِبل الله تعالى في كتابه الكريم، حيث كرّست الجماعات التكفيرية العنف وسيلة وحيدة في سبيل تحقيق غاية لا وجود لها أساساً، مقابل زرع الخراب والدمار والتشتّت في صفوف العرب والمسلمين، وبما يتّفق تماماً مع الأهداف الصهيونية والغربية في المنطقة.

43- الوهّابية في العراء، م. س، ص 50 - 51.

44- المرجع السابق، ص 48 - 49.

الخاتمة

لقد شغلت الجماعات السلفية ذي الجذور الوهّابية العالم بمفاهيمها وممارساتها الشنيعة، وحارت فيها الآراء والمواقف، فيما إذا كانت تنتمي للإسلام أم أنها دخيلة عليه. ومن خلال ما قامت وتقوم به، يتبيّن لنا أنها بُنيت على مبادئ وأسس مخالفة لكلّ منطقٍ آمنت به أو ادّعت أنها تؤمن به. وهي في مزاعمها لمحاربة البدع وقعت في مستنقع مليء بالبدع التي لم يعرف تاريخ الإسلام لها مثيلاً. لقد جُبلت الحركات السلفية على الكثير من المغالطات المدمّرة:

1 ـ انضواء هذه الجماعات تحت مسمّىً السلفية، أي العودة للسلف الصالح، مُسمّىً لا يقتصر عليها وحدها. فالكثير من الحركات والجماعات التي قامت أو تقوم حديثاً، تعود بأفكارها الأوّلية إلى أفكار الأسلاف، والذين هم بنظرها السلف الصالح، حتى من قِبل الديانات غير الإسلامية، كالمسيحية واليهودية وغيرها. من هنا، فالتسمية الأصحّ للجماعات السلفية هي «الجماعات الوهّابية»، نسبةً لمحمد بن عبد الوهاب، مُجدّد فكر هذه الجماعات، والتي تعود في أصلها لأحمد بن حنبل وابن تيميّة؛ وإن كانت تُنسب للمذهب الحنبلي، فلا بدّ من تسميتها بالوهّابية لما له من دور كبير في نشرها، أسوة بالمذاهب الأخرى التي سُمّيت بأسماء مشايخها، كالمذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الجعفري.

2 ـ إغلاق باب الاجتهاد من قِبل السلفيين، ووضع القرآن الكريم في حالة لا يستطيع معها مواكبة التطوّر الحاصل، سواء في الزمان أو المكان. فعدم النظر في بواطن الآيات، وأحياناً مخالفة ظواهر الآيات، كان دافعاً لإهمال الكثير منها، الأمر الذي جعل عقول أو مدارك أفراد تلك الجماعات منغلقة ومحدودة بالحدود التي فرضها مشايخ هذه الجماعات. ولعلّ هؤلاء هم المسؤولون عن

التخلّف الموجود لدى الأشخاص الذين يناصرونهم، والذي دفعهم إلى إصدار فتاوى بعيدة كلّ البعد عن الدين والعلم والمعرفة والمنطق، ليأتوا في كلّ مناسبة بفتاوى هزيلة ومثيرة للسخرية.

3 ـ الدعوة الملحّة للعودة إلى السنّة النبوية الشريفة كانت مجرّد شعار برّاق رفعته هذه الجماعات، كونها ثابرت على مخالفتها، وعلى الملأ. فالمعاملة الجيّدة للأسير والحفاظ على حياته، وعدم التمثيل بالجثث، أمور احترفت الجماعات (الجهادية التكفيرية) مخالفتها، وبأساليب وحشية، من قتل «الأسرى» أو إحراقهم، إلى قطع الرؤوس وهتك الأعراض، وعدم مراعاة حُرمة القرآن الكريم والمساجد، حيث هُدِّمت المساجد بدعوى أنها لغير الله، وأُحرِقت المصاحف. فالأخلاقيات التي حثّ الإسلام على وجوب التمتّع بها من قِبل الأفراد، غير واردة في سلوكيات السلفيين، والتي اتّسمت بالعنف والوحشية والقسوة، من خلال العمليات الانتحارية والتفجيرات العشوائية والجرائم التي انتشرت في العديد من البلدان العربية والإسلامية، والتي طالت وتطال ـ بمعظمها ـ الأبرياء، تحت ذريعة محاربة البدع التي تؤمن بها أو تمارسها بعض الطوائف أو المذاهب الإسلامية، بحسب زعم قادة ومنظّري تلك الحركات السلفية.

4 ـ ما انفكّت هذه الجماعات تعتمد العنف كوسيلة وحيدة للتعامل مع الآخرين، حيث استبعدت كلّ ما دون ذلك من مسيرتها. ففريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غائبة عن قاموسها، ولغة الحوار والمناظرات الفقهية والعقائدية ليست في برنامجها ولا تعتمدها في إقناع الآخر. ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى ضعف الحجّة لدى منظّري ومشايخ السلفية الوهّابية.

5 ـ لقد أسهم فكر الجماعات المتشدّدة في زرع الفتنة والشقاق بين صفوف المسلمين، وعلى مرّ الزمن، من خلال الانتقائية التي مارستها في

اختيار الأحاديث النبوية والعمل على تحريفها، ناهيك عن اختلاق الكثير من الأحاديث التي تثير العصبية لدى المذاهب الأخرى. وبذلك، تكون السلفية قد قدّمت خدمة كبيرة للعدوّ المتربّص بالإسلام، وقامت وتقوم بدوره أو نيابة عنه في تصديع الصف الإسلامي الواحد في مواجهته.

6 ـ إنّ مفاهيم الردّة والشرك والخروج من الملّة، هي مفاهيم نسبية، وتتماشى فقط مع القناعات الشخصية لمطلقيها، بحيث يصبح كلّ من يخالف في الرأي مرتداً لا بدّ من إجراء الحدّ عليه. وشهادة «لا إله إلا الله» لم تعد كافية لتنقذ المسلم من تنفيذ حكم الردّة فيه؛ حتّى وصل الأمر بالجماعات المتطرّفة إلى اعتبار أفرادها الخارجين عن طاعتها مرتدّين. وهذا ما حدث عندما رفض زعيم جبهة النصرة (لأهل الشام) الانقياد لإمرة أبو بكر البغدادي (في العراق)، فما كان منه إلاّ أن أصدر فتوى بردّة هذا الزعيم وأتباعه، وإخراجه من الملّة، وإعلان الحرب عليه.

7 ـ شعار الدفاع عن الدين ومحاربة البدع والمشركين، في سبيل إنقاذ الإسلام من الشوائب التي أُدخِلت عليه، بحسب زعم السلفيين الوهّابيين، هو خداع واضح بحقّ العامّة والخاصّة. وما نشهده اليوم هو حرب على الإسلام، وتشويه فظيع لصورته أمام غير المسلمين فحسب.

8 ـ انطلقت هذه الجماعات من فكرة محاربة أعداء الدين من اليهود والأميركيين. إلاّ أن مسيرتها العملية لا تحاكي هذه الفكرة. بل على العكس، هي قامت بمحاربة الأخ والشقيق والصديق قبل العدوّ!

لقد تأسّست الجماعات السلفية على مجموعة من التناقضات التي أسهمت في إضفاء الضبابية والغموض المريب على الأهداف التي تصبو إليها. وهذا ما أضفى على سلوكياتها ازدواجية في التعامل السياسي مع بعض القضايا

الكبرى، كنظرتها للأنظمة العربية والحكّام الظالمين. فالخروج على الحاكم جائزٌ على بعضهم (الحكّام)، ومحرّم على البعض الآخر! وتأييد الثورات ودعمها في مناطق ونبذها في أخرى هي سياسة مزدوجة وخبيثة اتبعتها الجماعات السلفية في المنطقة؛ ناهيك عن موقفها الملتبس من القضية الفلسطينية. ففي الوقت الذي تعلن فيه عن عدائها لـ«إسرائيل»، نجدها تُشرعن التعامل معها، من خلال التنسيق والتدريب والتواصل المباشر لإسقاط أنظمة عملت دوماً على دعم حركات المقاومة ضدّ «إسرائيل» (النموذج السوري).

إن الممارسات التي طبعت مسار الحركات والقوى السلفية، سواء التقليدية منها أو «الجهادية»، لعبت دوراً سلبياً خطيراً ومدمّراً في واقع ومستقبل الشعوب العربية والمسلمة عموماً. ولعلّ هذا الاستنتاج يبرّر الشبهات التي أُثيرت حول أهدافها وخلفياتها. فهذه الجماعات (أو أغلبها) بريطانية المنشأ، أميركية وسعودية الاستمرارية. وليست «إسرائيل» ببعيدة عن أهدافها وخططها، وهي المستفيدة الأولى من أفكار وممارسات تلك الجماعات السلفية المتطرّفة!

القسم الثاني

الحركات التكفيرية و«الربيع العربي».. وفلسطين

محمد شكر*

* باحث لبناني.

الحركات التكفيرية و«الربيع العربي» .. وفلسطين

تمهيد

لم تُثر قضية معاصرة جدلاً واسعاً مثلما أثارته قضية الحركات «الإسلامية» السلفية، وبالأخصّ منها المجموعات «الجهادية» والتكفيرية التي ذاع صيتها «السيّئ» خلال السنوات الأخيرة. فهذا «الفكر» السلفي الإلغائي جاء ببدعٍ لم يسمع بها المسلمون من قبل، ونسب إلى الإسلام أفكاراً وممارسات من شأنها أن تعيد المسلمين مئات السنين إلى الوراء، ليُضاف تخلّف آخر فوق ما يعيشونه من تخلّف، في حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية، بسبب بُعدهم عن مبادئ وقِيم الدين الإسلامي الأصيلة.

لقد تمكّن الفكر السلفي ـ التكفيري منه على وجه الخصوص ـ من التغلغل والانتشار داخل المجتمعات العربية والمسلمة، خلال العقود الماضية، مستفيداً من عناصر عدّة، على رأسها حبّ الدين والتعلّق به فطرياً من قِبل المسلمين العاديين، إضافة إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيّئة التي يعيشها المسلمون في ظلّ أنظمة الحكم القمعية والاستبدادية الحاكمة؛ إضافة إلى وفرة الموارد المالية، والتي شكّلت واحدة من أهم العوامل التي ساعدت السلفيين على نشر أفكارهم الفاسدة؛ والمعروف أن أموال النفط الخليجي كانت المصدر الأول لتمويل الفكر السلفي المتطرّف ومساعدته في الانتشار

والتوسّع. فمنذ اللحظات الأولى، تبنّى آل سعود في شبه الجزيرة العربية الفكر الوهّابي وجعلوه مذهباً لمملكتهم. كما أغدقوا مئات المليارات من الدولارات مقابل فتاوى وخطابات دينية مفبركة تدعم نظام حكمهم المتخلّف. وقد كان المتموّل السعودي «أسامة بن لادن» علماً من أعلام تلك الحركات التكفيرية، حيث كان لأمواله (غير النظيفة) دور أساسي في فرض نفوذ تنظيمه الإرهابي «القاعدة» في العالم؛ فيما نجحت المجموعات التي تحمل الفكر السلفي في نشر مشروعها التدميري والإقصائي، عبر الاستفادة من الأوضاع السيّئة التي يعيشها المسلمون في أغلب الدول العربية والإسلامية، برفعها شعارات جذّابة تحاكي عواطف الناس التوّاقين للعودة إلى الأصالة الإسلامية على قاعدة الحرّية والأمان والعيش الكريم.

إلاّ أن أصحاب الفكر السلفي المتطرّف لم يستفيدوا بشكل صحيح من هذا الدعم أو التقبّل الواسع للفكر (المشوّه) الذي حملوه، خصوصاً في بيئات إسلامية معيّنة (سنّية)، من أجل نشر حقيقة الدين الإسلامي الحنيف. بل هم عمدوا إلى نشر أفكار بعيدة كلّ البعد عن هذا الدين. فالإسلام لم يدع إلى قتل المسلم لأخيه المسلم، ولا هو دعا المسلم لتكفير أخيه المسلم، ولا إلى قتل وذبح ونحر كلّ من يخالف المسلم العقيدة والفكر أو التوجه السياسي؛ بل كان الإسلام، منذ اللحظات الأولى لنشأته، صاحب شعار «إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»، والآية الكريمة «لا إكراه في الدين»، بخلاف ما يروّج له وينشره أتباع الوهّابية والسلفية التكفيرية «الجهادية» اليوم.

لم يميّز أتباع الفكر السلفي المتشدّد في أعمالهم الإرهابية على امتداد الساحات بين مسلم وغير مسلم، أو بين مدني وعسكري. كما لم يميّزوا بين عدوّ وصديق ولا بين حليف ومخالف. بل هم برّروا لأنفسهم استخدام كلّ الوسائل والطرق للوصول إلى أهدافهم التي أزهقوا من أجلها أرواح مئات

الآلاف من البشر، بذريعة أنهم «مُخالفون» أو «مرتدّون»، أو أن الصدفة وضعتهم في طريق «المجاهدين»!

لقد شكّل الفكر السلفي التكفيري إساءة للدين الإسلامي (وللمسلمين) لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، من حيث نوع ومستوى هذه الإساءة وأثرها السلبي الهائل. فقد أصبح الفكر الإسلامي قريناً للفكر الإرهابي، وصار المسلم إرهابياً لدى الآخر غير المسلم، وأصبحت اللحية رمزاً بل شعاراً للإرهابي المسلم، وبات القرآن الكريم كتاباً يدعو للعنف والقتل، حتى صار لازماً أن يُحرق ويُمزّق ويُهان. وأصبح التطاول على رسول الإسلام محمد (ص) عملاً شجاعاً يستحقّ الثناء والتشجيع والحماية؛ وهو تعبيرٌ حرٌّ عن الرأي من قِبل الآخرين! كما دفع المسلمون وغيرهم في شتّى أنحاء العالم أثماناً باهظة نتيجة للتصرّفات والأعمال الإرهابية القبيحة والشائنة، التي قام بها تنظيم القاعدة وردائفه لاحقاً، من تضييق على حرّيات المسلمين (سنّة وشيعة) وطرد انتقامي للكثيرين منهم من الدول التي يعيشون فيها منذ عقود طويلة.

وفضلاً عمّا حمله - أو روّج له - السلفيون من أفكار وممارسات منحرفة، فإنهم لم يجعلوا من القضية العربية والإسلامية الأولى - أي القضية الفلسطينية - قضيتهم الأساس، والتي لا بدّ من أن تسخّر لها كلّ القدرات والإمكانيات بما يؤدّي إلى تحقيق الأهداف التي يطمح إليها كلّ مسلم على وجه الأرض.

كلّ ذلك جعل من البحث المعمّق حول تلك المجموعات المتطرّفة، صاحبة الفكر السلفي التكفيري، أمراً لا بدّ منه، للإضاءة عليها والغوص في خبايا أفكارها وطروحاتها، والنظر في ما شكّلته من جدلية فكرية وعقائدية وسياسية كبرى في عالمنا المعاصر.

لمحة تاريخية حول الحركة السلفية:

نشأت الحركة السلفية في القرن الثامن الهجري على يد رجل الدين «أحمد بن تيميّة» (الدمشقي). وهو أوّل من دعا إلى سلوك منهج في النظر إلى بعض الأمور المرتبطة بالدين، متّبعاً طريقة ونهج الإمام أحمد بن حنبل[1]. وكان محمد بن عبد الوهّاب[2] من مُحيي هذه الحركة السلفية في منطقة نجد في القرن الثاني عشر هجري، والتي تمّ تبنّيها لاحقاً من قِبل آل سعود، الذين رأوا فيها عاملاً مساعداً على قيام دولتهم فيما بعد (المملكة العربية السعودية).

السلفيون هم الذين يعتقدون بمبادئ وممارسات السلف الصالح، وينتهجون منهج هذا السلف في فهم الكتاب والسنّة وتطبيقهما. وفي اعتقادهم أن السلفية هي اتّباع الإسلام الصحيح؛ أي أنها موجودة مذ وجِد الإسلام. وهي الإسلام الذي جاء به النبي محمد (ص). لذلك، لا بدّ من الالتزام بالسلفية كمدخل للالتزام بدين الإسلام الحنيف!

مرّت الحركات السلفية بمراحل تاريخية عدّة قبل أن تصل إلى مرحلة التنظيم وتصبح مذهباً جديداً له أتباعه وأنصاره ومريدوه في أنحاء الأرض. وقد بدأت ملامح وجودها مع «الإمام» ابن حنبل الذي يقول عنه ابن قيّم الجوزية[3]: «إنه إمام أهل السنّة على الإطلاق.. وإن أئمّة الحديث والسنّة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة»، حيث صاغ ابن حنبل منهج السلفية النصوصي الذي يأخذ الإسلام أصولاً وفروعاً من النصوص والمأثورات. وقد أخذت الحركة السلفية بالازدهار في زمن الخليفة العبّاسي القادر بالله في القرن الرابع

1- أحد الأئمّة الأربعة لدى أهل السنّة والجماعة.

2- مؤسّس الحركة الوهّابية (التكفيرية) في شبه الجزيرة العربية.

3- أحد علماء السلفية في العهد المملوكي (1292 - 1350).

للهجرة، والذي أقرّها كمنهج رسمي في الدولة العبّاسية، لتنحسر بعد ذلك حتى زمن ابن تيميّة، ومن بعده محمد بن عبد الوهّاب.

وقد شكّلت الحركة الوهّابية حاضنة الحركات السلفية المعاصرة، والتي تجاوزت سابقاتها في التشدّد وتكفير كلّ من يخالفها في الفكر والعقيدة، حتى وصل الأمر بمنظّريها وأتباعها إلى اعتبار كلّ من لا يتبع المنهج السلفي والوهّابي كافراً يحلّ دمه وماله وعرضه، مع التأكيد على ضرورة اتباع تعاليم الدين والأخذ من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة دون أيّ تفسير أو اجتهاد؛ هذا مع رفضها التأويل الكلامي والاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ولقد ذهب الكثير من المفكّرين والباحثين المختصّين في الحركات الإسلامية أو السلفية، إلى اعتبار أن أفكار أتباع الحركة الوهّابية تتشابه مع الأفكار الدينية اليهودية المتطرّفة بشكل مريب ومثير للكثير من التساؤلات، مثل: تجسيم الله، جلوسه على العرش، إشعاع النور من وجهه، سماع العباد لصوته... والكثير ممّا لا يتّسع المجال لذكره[4].

فيما بعد، بدأت التجاذبات داخل الحركة السلفية نفسها ما بين مدٍ وجزر: إمّا يميناً نحو مزيد من التطرّف أو يساراً نحو بعض الانفتاح. إلاّ أن ذروة هذا التطرّف كانت مع بداية تحوّل الحركة السلفية بشكل عام، والحركة الوهّابية بشكل خاص، من حركات دينية تتّبع السبيل السلمي والتبليغي إلى حركات «جهادية» تبتغي الوصول إلى أهدافها من خلال استخدام الوسائل العنفية، تحت شعار الجهاد في سبيل الله وتحرير بلاد المسلمين، ولتتحوّل بسرعة من سلفية دينية إلى سلفية «جهادية» متطرّفة، لا تعترف بالآخر المخالف لرأيها في

4- راجع نسخ التوراة المحرّفة، وراجع كتب «شيخ الإسلام» ابن تيميّة [شبكة الإنترنت].

الدين أو العقيدة أو الفكر أو السياسة.

وقد اعتبرت هذه الحركات السلفية أن من حقّها القيام بأيّ عمل تراه ضرورياً لتحقيق الأهداف التي تصبو إليها؛ فلا ممنوعات ولا محظورات ولا حدود تقف عندها، ولا قيود تحدّ من تصرّفاتها التي تجاوزت التوصيفات المعاصرة للجرائم والارتكابات التي يندى لها جبين البشرية.

أولاً: السلفية الجهادية.. فكر وممارسة

تيّار «السلفية الجهادية» هو مصطلح أطلِق على بعض جماعات الإسلام السياسي التي تتبنّى «الجهاد» منهجاً للتغيير. وهو برز بداية كتيّار فكري في نهاية الثمانينات. ويعلن قادة أو كوادر هذا التيار أنه يتبع منهج سلف المسلمين وأن الجهاد أحد أركانه، والذي يجب وجوباً عينياً على المسلمين ضدّ العدوّ المحتلّ، كما ضدّ النظام الحاكم المبدّل للشريعة الإسلامية ويحكم بالقوانين الوضعية، أو ضدّ الظام المبالغ في الظلم والقهر؛ وكلّ ذلك من دون وضع معايير واضحة لهذه الأنظمة المستهدفة والجهة المخوّلة بأن تعلن الجهاد ضدّها.

ويعتبر التيار السلفي الجهادي نفسه مطبّقاً دقيقاً للشرع الإسلامي والتعاليم الدينية المستقاة من القرآن الكريم والسنّة النبوية. كما يرى منظّرو هذا التيار أن التغيير بالقوّة والجهاد هو من أفضل وأصحّ الوسائل وأقصرها لإقامة دين الله ونشر الشريعة الإسلامية، ومن دون وضع حدود أو قيود لهذا العنف. فكلّ وسيلة تساعد في تمكين الحكم والنظام الإسلامي هي عمل جائز، بل قد يصل إلى حدّ الوجوب!

من هنا تمّ تأسيس العديد من الحركات السلفية التكفيرية في العا لم، والتي اتخذت من العنف والقتل الأعمى سبيلاً لتحقيق الأهداف التي وضعتها لنفسها. وكان تنظيم القاعدة الذي أسّسه «الشيخ» السعودي «أسامة بن

لادن» أبرز تجلّيات هذه الحركات. فقد أفرط هذا التنظيم في استخدام الوسائل العنفية والوحشيّة لتحقيق الأهداف التي وضعها لنفسه، وعلى رأسها إقامة الخلافة الإسلامية؛ علماً أن تنظيم القاعدة هو من مخرجات الحركة الوهّابية، وبالتالي السلفية التكفيرية.

كما برزت لاحقاً الكثير من الحركات السلفية «الجهادية» التي أعلنت انتماءها أو تأييدها لتنظيم القاعدة، واتخذت من أسلوبه الهمجي في «مقاومة» الأنظمة والدول المعادية نهجاً وطريقاً للوصول إلى ما تبتغيه. فخلال فترة الاحتلال السوفياتي لأفغانستان بين عامي 1979 و1989 ونشوء تنظيم القاعدة، ظهرت الحركات «الجهادية» في كلٍ من الجزائر ومصر، لتبدأ بعدها العمليات الإرهابية الكبيرة في العديد من دولَ العالم، والتي تُوّجت عام 2001، عندما ضربت «القاعدة» قلب الولايات المتحدة الأميركية في الحادي عشر من أيلول، حيث ظهر نهج دولي جديد في مواجهة تلك الحركات بالخصوص، سُمّي بـ«الحرب على الإرهاب».

وقد دبّت لاحقاً الخلافات الحادّة داخل هذه المجموعات «الجهادية» حول طرق ووسائل عملها، وحول كيفية تحديد الصديق من العدوّ، من دون أن تؤدّي هذه الخلافات إلى انشقاقات واسعة داخلها. فبعض السلفيين اعتبر أن العدوّ الأول للإسلام (السلفي) هم الشيعة، وأن من حقّ «المجاهدين» استهداف الشيعة دون تمييز بين مدني وغير مدني، كما كان نهج القيادي الإرهابي أبو مصعب الزرقاوي في العراق؛ فيما اعتبر آخرون أن من حقّ «المجاهدين» استهداف كلّ من له علاقة بالعدوّ، سواء أكان مدنياً أو غير ذلك. من هنا كان مسلسل القتل العشوائي للمدنيين بواسطة عمليات انتحارية في العديد من ساحات «الجهاد»، في العالم العربي والإسلامي، وفي دول الغرب عموماً.

وكان من أبرز الداعين إلى اتباع هذا النهج الدموي «أبو قتادة الفلسطيني»،

الذي أفتى بجواز قتل عائلات العسكريين الجزائريين. كما برز خلاف بين «الدكتور فضل»، أحد قياديّي التيّار «الجهادي» في مصر، وبين زعيم تنظيم القاعدة «أيمن الظواهري»، الذي خلف أسامة بن لادن بعد مقتله (2011)، بعد أن اتهم «الدكتور فضل» تنظيم القاعدة بأنه أسّس لمذهب فاسد، وذلك في كتابه «وثيقة ترشيد العمل الجهادي»؛ فردّ عليه الظواهري بكتاب أسماه «التبرئة». كما برز أيضاً خلال الأزمة السورية الأخيرة إعلان تنظيم القاعدة إنشاء ما يسمّى بـ«الدولة الإسلامية في العراق والشام»، والذي يجمع بين «دولة العراق الإسلامية» وبين «جبهة النصرة» السورية. إلاّ أن أبو محمد «الجولاني»، وهو أحد قادة «جبهة النصرة» في سورية، رفض الأمر لاعتبارات شرعية، على حدّ وصفه[5]. لكن، وفي الإجمال، بقيت هذه الخلافات محصورة في الجانب التكتيكي من دون أن تصل إلى الأهداف الكبرى التي نشأت من أجلها كلّ هذه المجموعات السلفية المتطرّفة.

ثانياً: «الحرب على الإرهاب» وموقع السلفية «الجهادية» منها

تعاني دول العالم من الأعمال الإرهابية منذ مئات السنين. وقد تأثرت أوروبا بهذه الأعمال بشكل كبير خلال القرن العشرين. وفي عام 1937، عقِد في جنيف مؤتمر دولي على خلفية عدد من العمليات الإرهابية التي استهدفت بعض الدول الأوروبية، حيث تمّ الإعلان عن اتفاقية دولية لمكافحة الإرهاب الدولي. وقد حثّت ديباجة الاتفاقية الأطراف المتعاقدة على اتخاذ إجراءات فعّالة لمنع ومعاقبة جرائم الإرهاب ذات الطابع الدولي. وفي المادة الأولى، تعهدت الدول الأطراف بالامتناع عن كلّ فعلٍ من شأنه تشجيع الأنشطة

5- موقع قناة BBC العربية، "محطات مختلفة في خلافات الجهاديين"، مراد بطل الشيشاني، 22 نيسان 2013.

الإرهابية، ومنع الأعمال الإرهابية الموجّهة إلى أية دولة أخرى ومعاقبة مرتكبيها، وأن يكون هناك تعاون فيما بينها في سبيل تحقيق ذلك. وفي الفقرة الثانية من المادة نفسها، حدّدت الاتفاقية المقصود بأعمال الإرهاب، بأنها الأعمال الإجرامية الموجّهة ضدّ دولة ما، وتستهدف أو يُقصد بها خلق حالة رعب في أذهان أشخاص معيّنين أو مجموعة من الأشخاص أو عامة الجمهور. وقد عرِفت هذه الاتفاقية بـ«اتفاقية جنيف لمنع الإرهاب»[6].

وفي العام 1977، وضِعت الاتفاقية الأوروبية لقمع الإرهاب، بهدف القضاء على ظاهرة الإرهاب الدولي التي اجتاحت أوروبا في أوائل السبعينات، والمساهمة في قمع أفعال الإرهاب عندما تشكّل اعتداء على الحقوق والحرّيات الأساسية للأشخاص. وأكدت الاتفاقية الأوروبية بصفة خاصة على أهمية مبدأ تسليم مُرتكبي الأعمال الإرهابية كأحد العناصر الأساسية لضمان فعالية الاتفاقية وتحقيقها للنتائج والأهداف المرجوّة. وتجدر الإشارة إلى أن الاتفاقية لا تمنح الدول حرّية الاختيار بين التسليم والمحاكمة. فالأولوية هي دائماً للتسليم[7].

كما عُقِدت الكثير من الاتفاقيات الدولية التي هدفت إلى محاربة الإرهاب الدولي الذي يستهدف الدول أو الأشخاص، دون التمكن من تحديد مفهوم واحد وواضح للإرهاب بين دول العالم. فقد عملت كلّ دولة على تحديد مفهوم خاص بها يلائم مصالحها وأهدافها، الأمر الذي حدّ من فعالية هذه الاتفاقيات وحال دون تحقيق نصر حقيقي وحاسم على الحركات الإرهابية. ففي الوقت الذي نظرت فيه بعض الدول إلى منظمة أو مجموعة على أنها

6- سليمان، عصام، الحرب على الإرهاب والقانون الدولي الإنساني، مجلة الجيش اللبناني، العدد 333، 2004/7/1.

7- م.س.

حركة إرهابية تنطبق عليها بنود الاتفاقيات الدولية، رأت فيها دول أخرى حركات مقاومة وتحرّر؛ وبالتالي فهي بعيدة عن الإرهاب. كما استفادت الدول أو القوى الكبرى من الغموض الذي اكتنف مفهوم الإرهاب لتحقيق مصالحها وتنفيذ مشاريعها، فأصبحت تصنف كلّ من يعارض سياساتها في لوائح طويلة من المنظمات الإرهابية أو لوائح الدول الداعمة للإرهاب. وكانت اللوائح الأميركية للإرهاب من أبرز هذه اللوائح، إضافة للوائح الاتحاد الأوروبي للإرهاب. وقد ظهرت حديثاً، وبشكل مفاجئ، اللوائح الخليجية للإرهاب!*

في عام 1989، خرجت جيوش الاتحاد السوفياتي السابق من أفغانستان، مخلّفة وراءها عشرات آلاف من «المجاهدين» الإسلاميين المتطرّفين المدرّبين، والمستعدّين للموت في سبيل أهدافهم، لينتشروا بعد ذلك في العديد من دول العالم، وبالأخصّ في العالم العربي وأوروبا والولايات المتحدة الأميركية. وكانت المملكة العربية السعودية في رأس قائمة الدول التي شكّلت بيئة حاضنة كبرى لتنامي الحركات التي تأطّر هؤلاء «المجاهدون» ضمنها، في كنف الحركة الوهّابية السلفية المتخلّفة، بما فيها من رجال دين وأفكار وفتاوى حسب الطلب، وبما أمّنه من دعم مادّي ومعنوي وإيديولوجي لهذه الحركات الإرهابية.

وقد بدأت الخلايا السرّية لتلك الجماعات تكبر وتنمو مع الأيام، خصوصاً مع توسع وترسخ الهيمنة الأميركية في الشرق الأوسط، بالتعاون مع الأنظمة العربية التي حكمت شعوبها بالقمع لعشرات السنين. ومن ثمّ باشرت الحركات «الجهادية» المذكورة بتنفيذ عشرات الاعتداءات والأعمال الإرهابية

* التي صنّفت حزب الله اللبناني كحركة إرهابية وفرضت عقوبات على شخصيات وكوادر فيه بهذا الزعم.

داخل الدول العربية والإسلامية أولاً. فمن تفجير «أبراج الخُبر» في السعودية 1996، إلى الكثير من التفجيرات والعمليات الأمنية التي نفّذت في الصومال واليمن ومصر، وأفغانستان وباكستان، وغيرها من الدول التي يرى فيها تنظيم القاعدة أرض جهاد، حتى وصلت عملياته والحركات «الجهادية» الأخرى إلى مرحلة لم تعد أغلب دول العالم تتحمّلها، لتبدأ الدعوات إلى التحرّك ضدّ هذه الحركات، وعلى رأسها تنظيم القاعدة. كما بدأ التمهيد الأميركي لشنّ حملة دولية واسعة ضدّ ما يسمّى بمحور الشرّ، في الوقت عينه [إيران ـ سوريا ـ حزب الله وحركة حماس].

إن أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001 شكّلت تاريخاً مفصلياً في التعاطي الأميركي (والغربي) مع تنظيم القاعدة بشكل خاص، ومع الحركات السلفية «الجهادية» بشكل عام، حيث تمّ تنفيذ الهجوم المزدوج «الشهير» على برجي التجارة العالمية في نيويورك، وعلى مركز وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون) في واشنطن (بواسطة طائرات مدنية مختطفة)، الأمر الذي اعتُبر مساً خطيراً بالهيبة أو العنجهية الأميركية، والذي أدّى إلى ردود فعل عالمية غير مسبوقة ضدّ العرب المسلمين عموماً. وقد وجّهت التهم مباشرة إلى تنظيم القاعدة، الذي عاد لاحقاً ليعترف بمسؤوليته، في بيانٍ وصف فيه هذه العمليات بالغزوات الجهادية المباركة!

كانت تلك الاعتداءات الذريعة أو الفرصة الأفضل التي قدّمها تنظيم القاعدة للولايات المتحدة للبدء بحرب عالمية ضدّ المنظمات والحركات الإرهابية، وضدّ ما سُمّي دول محور الشرّ (العراق، سورية، إيران وكوريا الشمالية). وقد كان على رأس قائمة الحركات أو المجموعات المستهدفة تنظيم القاعدة، حيث جرى غزو أفغانستان في السابع من تشرين الثاني عام 2001 تحت عنوان «عملية الحرّية المستديمة»، وبغطاء أممي أمّنه مجلس الأمن

الدولي في قراره (المبهم) رقم (1373)، الصادر في 28 أيلول عام 2001. وهذا الغزو شكّل الخطوة الأولى الكبرى التي تقوم بها الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون في حربها الشاملة ضدّ الإرهاب. وكان التبرير الذي روّجته دول التحالف الغربي لتبرير احتلالها لأفغانستان هو التفتيش عن زعيم تنظيم القاعدة السعودي «أسامة بن لادن»، المتّهم بتنفيذ اعتداءات واشنطن ونيويورك، والقضاء على تنظيمه الإرهابي «القاعدة».

وفي العشرين من شهر آذار 2003، اجتاحت القوّات الأميركية، بمساندة عدد من الدول المتحالفة معها، الأراضي العراقية، في إطار استكمال حربها الكونية ضدّ دول «محور الشرّ»، في عملية أطلِق عليها اسم «حرب تحرير العراق»! وقد اتخذت دول التحالف من مزاعم حول وجود أسلحة جرثومية وكيماوية لدى نظام «صدّام حسين» ذريعة لتنفيذ هذا الغزو، علماً أن الولايات المتحدة لم تحصل على تفويض من مجلس الأمن الدولي لشنّ حربها هذه؛ كما لم يتم العثور على أيّ دليل على وجود أسلحة بيولوجية لدى النظام السابق، بالرغم من المحاولات التي قام بها المسؤولون الأميركيون والأوروبيون لتأكيد نظريتهم المخادعة هذه.

هذا فيما استمرّت الولايات المتحدة في القيام بالعديد من «العمليات» العسكرية المحدودة (خاصة عبر طائرات من دون طيّار) ضدّ مجموعات صنّفتها بالمنظمات الإرهابية، في اليمن والصومال والسودان وباكستان، وغيرها، ضاربة بعرض الحائط المواثيق الدولية والقِيم الإنسانية. فالكثير من تلك العمليات التي كان من المفترض أن تستهدف مجموعات مسلّحة أصابت ـ وتصيب ـ تجمّعات بشرية مدنية، كما حصل في اليمن وباكستان وأفغانستان، ولعشرات المرّات. كما أن الولايات المتحدة استفادت إلى أقصى الحدود من عدم إجماع دول العالم على تعريف موحّد وواضح للإرهاب،

حتى أصبح مصطلح الإرهاب فضفاضاً ويتسع بحسب ما يخدم المصالح والأهداف الخاصة بالدول أو الحكّام والزعماء المستبدّين، وفي المقدّمة منهم قادة الولايات المتحدة والكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين.

وبالرغم ممّا قامت وتقوم به الولايات المتحدة (وحلفاؤها) في إطار ما سُمّي الحرب ضدّ الإرهاب، من عمليات عسكرية وأمنية كبرى، وصرف مبالغ طائلة قُدّرت بما لا يقلّ عن 3700 مليار دولار حتى اليوم، والكثير من الأرواح التي أزهِقت والتي تجاوزت 225 ألف قتيل[8]، إلاّ أن الأوضاع الأمنية في الدول الغربية تحديداً لم تتغيّر تماماً. فقد استمرّت العمليات الإرهابية في العديد من مدن العالم، والتي استهدفت بغالبيتها تجمّعات مدنية، حتى وصلت إلى نقاط مهمة وحسّاسة في بعض تلك الدول، كما حدث في مدينة بوسطن في الولايات المتحدة الأميركية في شهر نيسان عام 2013، وما حصل قبلها في أنفاق لندن في شهر تموز من العام 2005.

ثالثاً: الحركات «الجهادية» وثورات «الربيع العربي»

شكّل ما سُمّي (الربيع العربي) فرصة تاريخية للحركات «الجهادية» للخروج إلى العلن على صهوة هذا الربيع المزعوم، وللوصول إلى مواقع متقدّمة على أنقاض الأنظمة العربية السابقة، حيث أصبحت تلك الحركات بمثابة العامود الفقري للقوى المسلّحة التي تواجه الدولة بالعنف (كما في سورية اليوم).

لكن في البداية، كان دور الحركات السلفية «الجهادية» في «الثورات العربية»، سواء على المستوى السلمي أم على المستوى «الجهادي»، محدوداً،

8- مشهداني، أكرم، ، مجلة البيان الإلكترونية، العدد 289، 28 تموز 2011.

كما الحال في تونس ومصر. وقد ذهب المحلّل السياسي «خليل العناني»[9] إلى «أن إسهامات هذه الحركات في إشعال الثورات العربية كانت محدودة، مقارنة بالوضع التنظيمي والحركي لها. صحيح أن بعض هذه الحركات قد دفعت بقواعدها للانخراط في العمل الميداني لاحقاً، بيْد أنها لم تكن بأيّ حال رائدة له؛ كما أن مشاركتها كانت كطرف ضمن أطراف وقوى وحركات أخرى دون هيمنة»[10]. وقد عزا «العناني» سبب ضعف دور تلك الحركات إلى احتمالين: الأول هو تخوّف قياداتها من إجهاض «الثورات» في مهدها بسبب النظرة السلبية من العالم الغربي للحركات الإسلامية، وهذا دليل ذكاء بحسب رأي الكاتب. أما الثاني، فهو «انعدام أو فقر الخيال الثوري لدى التيّارات الإسلامية، وذلك نتيجة لخبرتها السلبية مع الأنظمة الحاكمة، كما هي الحال في مصر (الصدام التاريخي بين عبد الناصر والإخوان، فضلاً عن المواجهة المستمرّة بين مبارك والجماعة طيلة العقدين الأخيرين)، وسورية (أحداث حماة عام 1982)، وتونس (أحداث باب سويقة عام 1990). كما رأى الكاتب أن انخراط الحركات الإسلامية في الثورات العربية لم يكن اختيارياً، بل كان أمراً لا مفرّ منه بفعل تطوّرات الفعل الثوري الذي كان سريعاً وحاول الجميع اللحاق به[11].

أيضاً، يقول الكاتب الأميركي «ناثان براون»[12] في كتابه «عندما لا يكون

9- مساعد رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام المصرية.

10- العناني، خليل، التيارات الإسلامية في عصر الثورات العربية، مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، 9 أيار 2013.

11- م.س.

12- أستاذ العلوم السياسية والشؤون الدولية في جامعة جورج واشنطن، والمتخصّص في الحركات الإسلامية.

النجاح خياراً»، حول صعود الحركات الإسلامية في دول «الربيع العربي»: «اتخذ الإخوان المسلمون أثناء وبعد الثورة مواقف اتسمت بقدرٍ كبيرٍ من عدم الالتزام، على نحوٍ أثار حيرة المراقبين. فعلى الرغم من أن الجماعة لم تشارك رسمياً في التظاهرات في بداية الثورة، فإنها سمحت لأعضائها بالاشتراك على نحوٍ فردي، ثم غيّرت موقفها، ودعمت الثورة بشكل كامل. كما ظهر عدم الالتزام في مواقف الإخوان المسلمين مع دعوة عمر سليمان، نائب رئيس الجمهورية آنذاك، إلى الاجتماع بزعماء المعارضة في محاولة لاسترضاء المتظاهرين، مع الإبقاء على نظام مبارك في الحكم، حيث أدهش الإخوان الجميع بقبول هذه الدعوة، وإن أصرّوا على أنهم التقوا به فقط للاستماع وليس للتفاوض[13]! ولو لم تبادر الحركات والجماعات الإسلامية إلى الانخراط في التحرّكات الشعبية في مصر، لأصبحت بعد فترة قصيرة خارج أية حسابات أو دون أيّ دور، خصوصاً بعد أن أصبحت بوادر انتصار الثورة الشعبية واضحة وجليّة لكلّ المراقبين.

ولم يكن الوضع في تونس بأفضل ممّا هو عليه في مصر. فكما عملت حركات مصر الإسلامية على الاستفادة من ثورة شباب مصر ودخلت متأخرة لتقطف ثمار نضالهم، كذلك سارت الحركات الإسلامية التونسية في نفس المسار، بعد أن كان دورها في البداية شبه معدوم. وبحسب الكاتب «خليل العناني»، «كانت حركة النهضة[14] آخر الملتحقين بقطار الثورة التونسية، وذلك نتيجة لضعف قيادة الحركة وتآكل بُنيتها القاعدية بسبب الضربات المتلاحقة التي تعرّضت لها طيلة العقدين الماضيين، فضلاً عن انفصال المستوى القيادي

13– براون، ناثان، مجلة السياسة الدولية، 10 أيار 2013، ترجمة د. مروة نظير.

14– وهي الحركة الإسلامية التي تمكنت من الفوز في الانتخابات التشريعية الأولى التي حصلت بعد «الثورة»، وتسلّمت مقاليد الحكم في تونس لفترة قصيرة فقط.

(الذي كان أغلب رموزه في المهجر) عن القواعد الحركية في تونس[15]. إلاّ أنّ حركة النهضة الإسلامية عرفت كيف تقطف ثمار الثورة بأقلّ خسائر ممكنة؛ فلا هي قدّمت أياً من قياداتها شهيداً في طريق الخلاص الذي اختاره الشعب التونسي، ولا شاركت في التظاهرات بشكل فعّال ومؤثّر. بل هي تمكنت فقط من استغلال الحالة العاطفية التي عاشها الشعب (خلال وبعد الثورة) للوصول إلى مواقع القرار والحكم في تونس، خدمة للمشروع الإسلامي الكبير الذي يتمثل في الهيمنة على العالم العربي وتطبيق الحكم الأصولي السلفي فيه.

أما في ليبيا، فإن الجماعات «الإسلامية»، والتي كان لها حضور مؤثّر على الساحة قبل بداية الثورة، فلم يكن لها أيّ دور في التحرّكات الشعبية الأولى المناهضة للنظام. بل هي انخرطت في العمل الثوري بعد أن تحوّلت الأحداث نحو أعمال عنف دامية. وبحسب الباحث عمر عاشور: «لا يبدو أن الإسلاميين في ليبيا قد تورّطوا مباشرة في التحريض على الثورة. حتى أن أعضاء بارزين في الجماعات الإسلامية قدّموا «المشورة» للنظام حول كيفية التعامل مع الانتفاضة في بنغازي، وأوصوا بالحوار بدلاً من ردّ الفعل العنيف». كما أن تحالف هذه الحركات واستعانتها بحلف «الناتو» شكّل نكسة للثورة التي لم يكن لها أن تنتصر لولا الضربات العسكرية الجوّية التي قامت بها بعض الدول الغربية ضدّ نظام «معمر القذافي». مع العلم أن هذه الثورة لم تكن مصدر نعمة للشعب الليبي الذي كان المنبع الأساس لها؛ بل إن الثورة حوّلت ليبيا من دولة لديها مؤسساتها القوية ـ مع ما كان لهذه الدولة من عورات وسلبيات كبرى ـ إلى مجموعة من القبائل المتناحرة والمتحاربة لأهدافها الخاصة والضيّقة. وقد شكّلت الحركات السلفية العنصر الأهم في نشوء الحالة الفوضوية الجديدة التي وصلت إليها ليبيا، خصوصاً من خلال

15– العناني، مرجع سبق ذكره.

الأعمال والممارسات الوحشية التي هدفت من خلالها إلى نشر فكرها أو عقيدتها بالقوّة على الشعب الليبي، مستخدمة الوسائل العسكرية والأمنية البحتة.

أما في سورية، التي شكّلت نموذجاً مختلفاً للثورات العربية، فقد حذت الحركات «الإسلامية» فيها حذو أخواتها في باقي دول «الربيع العربي». وبداية، لم يكن لهذه الحركات دور بارز في التحرّكات الشعبية، ولم تحمل تلك التحرّكات حينها أية بصمات إسلامية، إذ أن أغلب الشعارات التي أطلِقت في المسيرات كانت تدعو إلى إصلاح النظام وتحصيل بعض الحرّيات والحقوق.

ومع انطلاق الاحتجاجات الشعبية في سورية مطلع العام 2011، اتسم موقف الحركات «الإسلامية» بالحذر، حين أحجمت عن المشاركة المباشرة فيها، ولم تصدر بيانها الرسمي الأول دعماً لـ«الثورة» إلاّ في أواخر نيسان/ أبريل، والذي دعت فيه صراحة إلى إسقاط نظام بشار الأسد. وفي تشرين الأول/أكتوبر، شارك «الأخوان المسلمون» في تشكيل المجلس الوطني السوري في اسطنبول، الذي ضمّ فصائل مختلفة من المعارضة السورية؛ واعتُبر «الإخوان المسلمون» المكوّن الإسلامي الأقوى في المجلس[16]. ومع تحوّل الصراع في سورية إلى صراع عسكري ودموي، برزت الجماعات السلفية والتكفيرية، وتحوّل الشعار «الثوري» من إصلاح النظام إلى إسقاطه بالطرق العنفية، تحت ما سُمّي لواء الإسلام والشريعة، لتصبح أخبار القتل والذبح والمجازر من الأخبار العادية التي تبثّها القنوات والصفحات الإلكترونية في كلّ يوم. وقد شكّلت المجموعات التكفيرية العامود الفقري للمعارضة

16- مركز كارنيغي للشرق الأوسط، «جماعة الإخوان المسلمين في سورية»، 10 حزيران 2012.

المسلّحة في سورية، حيث تمكنت من السيطرة على بعض الأراضي السورية وإعلان إمارات ودول خاصة فيها. كما عمدت هذه الجماعات إلى تشكيل مجالس قضائية تحاكم كلّ من يخالفها الرأي والعقيدة والتفكير، في خطوة شكّلت إهانة حقيقية للدين الإسلامي الحنيف، الذي ظهر بمظهر التخلّف والرجعية، بحيث سعت تلك المجموعات إلى إعادة المجتمعات والمناطق التي سيطرت عليها عقوداً إلى الوراء، من خلال الممارسات والجرائم البشعة التي قامت بها باسم الإسلام. فذبح البشر أصبح مقروناً بالتكبير والتهليل، والإعدام الجماعي بالرصاص بات مقروناً ببعض آيات القرآن الكريم، وأبشع المشاهد الدموية صارت تُصبغ بصبغة الدين والشريعة.

وقد تسبّبت أعمال الجماعات السلفية الإرهابية، في إطار ما سمّي بالثورة السورية، في مشكلة كبرى للأطراف الأخرى المشاركة في «الثورة»، ومشكلة أكبر للدول الداعمة لها، والتي أوجست خيفة من وصول الدعم المالي والتسليحي للقوى «المعتدلة» إلى هذه الجماعات التي باتت تشكّل خطراً فعلياً على أمن الدول الغربية القومي. من هنا بدأ العمل الغربي والعربي الجدّي للتخلّص من هذه الحركات أو الحدّ من خطرها، عبر الدعوات المتواصلة والمتكرّرة التي وجّهت لما يسمّى بالجيش السوري الحرّ للتخلص من الحركات «الجهادية» الناشطة على الأراضي السورية، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع في سورية، هي مرحلة التناحر والتقاتل بين أعداء النظام، من دون أن نغفل المصلحة الحقيقية لدى بعض الدول في استمرار أعمال ونشاطات المجموعات المتطرّفة في سورية، خصوصاً أن هذه الدول (الولايات المتحدة وأوروبا) كانت قد سهّلت وصول الكثير من أفراد هذه المجموعات إلى حيث يجب أن تصل، في محاولة خبيثة منها للتخلص من أكبر عدد منهم، على أرض الآخرين!

رابعاً: فلسطين في فكر الحركات السلفية

شكّلت القضية الفلسطينية بالنسبة للحركات الإسلامية السلفية قضية مركزية، بحسب ما صرّح وكتب قادتها ومنظّروها، منذ نشأة هذه القضية. فهي التي تتحرّك من منطلق عقائدي وفقهي وترفض وجود حدود وحواجز بين البلاد الإسلامية، ولا تعترف بمفهوم الوطن. وقد أكد على هذا المعنى مراراً الشيخ «حسن البنّا» في رسائله ومقالاته، حيث يقول: «إننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضيّة والحدود الجغرافية. فكلّ بقعة فيها مسلم يقول (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) وطن عندنا، له حُرمته وقداسته وحبّه والإخلاص له والجهاد في سبيل خيره. كلّ المسلمين عندنا في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا، نهتم لهم ونشعر بشعورهم ونحسّ بإحساسهم»[17].

وفي خطابٍ وجّهه إلى السفير البريطاني في القاهرة، اعتبر البنّا «أن قضية فلسطين قضية كلّ مسلم». وتؤكّد جريدة (الإخوان المسلمين) على أن «فلسطين قطعة من الجسد الإسلامي العام، ولبنة قيّمة من بُنيان الكيان الإسلامي. فكلّ قطعة لا تتألّم لألم فلسطين ليست من هذا الجسد، وكلّ لبنة لا تختلّ لاختلال فلسطين فليست من هذا البنيان»[18].

يقول حسن الساعاتي (شقيق حسن البنّا): «إن فلسطين تعنينا. ومن قال غير ذلك فليس بمسلم ولا عربي. إذ المسلم للمسلم كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً،

17– صفوت، حسين، الإخوان المسلمون والقضية الفلسطينية «1936 - 1949» - دراسات في تاريخ الحركة الإسلامية، الموقع الإلكتروني للموسوعة الرسمية للإخوان المسلمين.

18– م.س.

والعربي لا تكون صلته بذوي رحمه تجافياً ولا نقضاً؛ والإسلام والعروبة لازمان لا يفترقان. وكلمتان يحدّد معناهما الإسلام بأنه البلاد التي تحدّدها كلمة التوحيد الخالصة، وليس هو ما يعرّف حدوده الجغرافيون بمواقع جهات اليابس والماء»[19].

لقد أدرك (الإخوان) خطورة المشروع الاستيطاني الصهيوني على الوحدة العربية والإسلامية، مثلما أدركوا خطورته على مصر، خصوصاً مع التوسع غير المسبوق للمستوطنات الصهيونية في الأراضي الفلسطينية. كما أدركوا أن هذه الخطورة لا تتوقف عند الأخطار السياسية؛ بل تتعدّى ذلك إلى الأخطار الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها من المجالات. وبذلك كان المشروع الصهيوني تهديداً للحلقات الثلاث لدى الإخوان[20]؛ هذا مع الدعم غير المحدود الذي تقدّمه الدول الغربية وبعض الدول العربية لهذا الكيان العنصري للمحافظة على تفوّقه على دول المحيط العربي «المتخلّف والرجعي».

وإضافة للأخطار السياسية المترتبة على الدول العربية، أدرك «الإخوان» خطر الصهيونية على العالم الإسلامي، حيث يعتبر العدوّ الصهيوني نفسه مخلب قط لكلّ القوى الأجنبية التي لها مطامع في أيّ بلد عربي أو إسلامي[21]. وقد برز في هذا المجال العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، والذي كشف التناغم وحتى التعاون بين الدول الاستعمارية وبين هذا الكيان، والفوائد الكبرى التي من الممكن أن تحقّقها تلك الدول من الكيان العبري العنصري.

19– م.س.

20– م.س.

21– م.س.

أخذ الحيّز الديني لفلسطين مكانة مميّزة في فكر الحركات الإسلامية عموماً. ففي فلسطين قبلة المسلمين الأولى. وفلسطين هي الأرض التي أسرى منها نبيّ الرحمة محمد المصطفى (ص) إلى السماوات العلى. وهي الأرض التي بارك الله حولها كما جاء في القرآن الكريم؛ وهي مهبط الكثير من الأنبياء والرسل (ع). وفلسطين تحوي الكثير من الأماكن التي لها قُدسيتها لدى المسلمين؛ كما أن الجماعات الإسلامية تنظر إلى فلسطين على أنها جزء من العالم الإسلامي ومن دولة الخلافة التي يسعى إليها أتباعها، والتي لا بدّ أن تتحقّق بحسب ما يعتقدون.

ونظراً للمنزلة الدينية الكبرى لفلسطين، «فإن الإخوان المسلمين يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن فلسطين جزء من العقيدة الإسلامية، وأن أرضها وقف إسلامي على جميع أجيال المسلمين، في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، إلى يوم القيامة، لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يفرّط أو يتنازل ولو على جزء صغير جداً منها. ولذلك، فهي ليست مُلكاً للفلسطينيين أو العرب فحسب، بل هي ملكٌ للمسلمين جميعاً... فعلى المسلمين في كلّ مكان أن يساهموا عملياً في تقديم المال والدم للدفاع عنها[22].

لقد أكّد قادة الحركات الإسلامية في المنطقة دوماً على أن قضية فلسطين هي قضية المسلمين الأولى. وعملت هذه الحركات على تأكيد أولوية تلك القضية على ما عداها من قضايا، من خلال نشاطها السياسي والثقافي داخل المجتمعات العربية والإسلامية. كما تبنّت الجماعات الإسلامية بالإجماع خيار نصرة القضية الفلسطينية وعدم الاعتراف بالكيان الصهيوني، فيما دعا بعضها إلى اتباع الكفاح المسلّح نهجاً وطريقاً وحيداً لاستعادة فلسطين وكلّ

22– م.س.

الحقوق العربية من المحتلّين الصهاينة.

وفي الواقع، وقد شكّلت الخطابات «الرنّانة» مصدراً مهماً لحشد التأييد والنصرة وسط الشعوب العربية لصالح هذه الحركات الإسلامية، التي حوّلت هذا التأييد نحو مسارات أخرى غير فلسطين فيما بعد!

1 ـ الجماعات السلفية في مصر:

التقى «إخوان مصر» مع «إخوان العالم الإسلامي» في النظرة إلى القضية الفلسطينية. وانطلاقاً من الفكر الذي حملوه ونشروه، اعتبر الإخوان المسلمون في مصر أن من واجبهم دعم إخوانهم في فلسطين لاستعادة حقوقهم وأرضهم والحفاظ على أرواحهم وأموالهم.

وقد برز دور الجماعات الإسلامية المصرية (وبالأخصّ حركة الإخوان المسلمين)، في إطار دعم القضية الفلسطينية، بداية من خلال الدعم السياسي والمعنوي والمادي، خصوصاً في الفترة التي سبقت حرب 1948 [23]؛ ولاحقاً عبر إرسال بعض المقاتلين للمشاركة في الحرب ضدّ الكيان الصهيوني، ليتحوّل هذا الدعم بعد ذلك إلى مجرّد شعارات وتصريحات أو بيانات موسمية لا تُسمن ولا تغني من جوع.

ففي البدايات الأولى للصراع العربي ـ الصهيوني، كان التعاطف العربي والإسلامي كبيراً وواسعاً على مستوى الشارع، إلى درجة أن أية جماعة لم تتمكن من الوقوف في وجه هذا الإعصار الشعبي الذي جرف كلّ من وقف بطريقه. وهذه الحالة انسحبت على جماعة الإخوان المسلمين في مصر، والتي أعلنت وقوفها إلى جانب الشعب الفلسطيني في صراعه مع العدوّ الصهيوني

23– ميتشل، ريتشارد، الإخوان المسلمون وفلسطين، صحيفة السفير ـ ملحق فلسطين، العدد 23، السنة الثانية، 15 آذار 2012.

بشكل واضح في بياناتها ومقرّراتها وفي وثيقتها الأساسية، ليقتصر الأمر لاحقاً على هذه البيانات والمواقف، ومن دون أن تترجم إلى فعل وعمل ملموس، بالرغم من الحاجة الماسّة لهذا الدعم من قِبل الشعب الفلسطيني وفصائله المقاتلة طيلة مراحل الصراع.

لكن، تاريخياً، لم تتمكن حركة الإخوان المسلمين من نشر أفكارها بصورة علنية في مصر خلال حكم الرئيس المصري الراحل «جمال عبد الناصر»، الذي شنّ حملات قمع متواصلة ضدّها، حيث فرّ الكثير من قادتها وأُلقِي بالآخرين في السجون، فيما قُمِعت حركة الإخوان إلى أمدٍ قصير في حينه.

وخلال حكم «أنور السادات»، استفاد الإخوان المسلمون من الحرّيات التي سمح بها (في محاولة منه لإظهار نفسه بمظهر الداعم والمساند للديمقراطية)، حيث أقاموا الجمعيات وعقدوا الندوات، وامتلأت المساجد بأتباعهم، وبدأ «الغزو الإسلامي» للمؤسسات الحكومية، ومنها مؤسسة الجيش، الأمر الذي كان له أثر كبير في إذكاء الحماسة الدينية لدى الجنود المصريين إبّان حرب 1973.[24]

وقد استمرّ الإخوان المسلمون في تلك المرحلة برفع الشعارات التي تظهرهم في موقع المدافع والمحامي، وحتى المحرّر لفلسطين. وفي مرحلة ثورات «الربيع العربي»، قال القيادي في الإخوان المسلمين في مصر الدكتور حازم فاروق: «إن قضية القدس لا تفرّق بين ناصري وإسلامي وعلماني وليبرالي وقومي»، مشدّداً على أن قضية فلسطين في القلب وغاية من غايات الثورة المصرية وكلّ الثورات العربية. وأضاف: «علماً بأننا مكلّفون بتحرير

24– م.س.

فلسطين دون أن يكون أيّ منّا مفوّضاً بالتفريط في شبر منها»[25].

إذاً، لم يتوقف الإخوان المسلمون في مصر عن إطلاق المواقف السياسية الداعمة للقضية الفلسطينية، والمندّدة بكلّ تقصير في دعم حركات المقاومة في فلسطين. إلاّ أن هذه المواقف لم تتحوّل منذ فترة بعيدة إلى واقع على الأرض.

فخلال العدوان الصهيوني على غزّة عام 2009، لم يبادر الإخوان المسلمون إلى تنظيم تظاهرات داعمة لحركة حماس في مدن ومحافظات مصر، أو القيام بخطوات من شأنها أن تضغط على نظام حسني مبارك (السابق) للعمل على وقف حمّام الدم في غزّة في حينه؛ علماً أن الطرف الأبرز المستهدف في قطاع غزة كان حركة حماس، التي هي جزء من حركة الإخوان المسلمين العالمية.

وفي الحرب الصهيونية على غزّة عام 2012، والذي كان الإخوان المسلمون يقبضون خلالها على مقاليد الحكم في مصر، عمل الإخوان على الاستفادة إلى أقصى الحدود من هذه الحرب لتحقيق مصالحهم الخاصة على المستوى الدولي والإقليمي، غير مبالين بعمليات القتل والتدمير التي استهدفت الشعب الفلسطيني، ومتناسين الشعارات التي أطلقوها طيلة العقود الماضية. كما «تفنّن» الإخوان المسلمون في الدفاع عن معاهدة كمب ديفيد الموقّعة مع النظام المصري السابق بحجّة عدم إمكانية التراجع عن اتفاقيات دولية؛ بل هم عملوا على تفعيل هذه المعاهدات التي جعلت الكيان العبري يعيش خلال فترة حكم الإخوان في مصر أكثر المراحل هدوءاً وأمناً على جبهته الجنوبية!

وقد وازت «الخدمات» التي قدّمتها حركة الإخوان المسلمين الحاكمة في عهد الرئيس محمد مرسي (المسجون حالياً)، لـ«إسرائيل» أضعاف ما قدّمه

25- جريدة صدى البلد، الإثنين، 2013/6/3.

الرئيس المخلوع حسني مبارك خلال فترة حكمه. فمن تدمير الأنفاق، إلى الإغلاق المستمرّ والدائم للمعابر، إلى منع إدخال السلاح للمقاومة، إلى التعهد بالمحافظة على معاهدة كمب ديفيد، وصولاً إلى الرسالة الشهيرة من مرسي إلى الرئيس الصهيوني شمعون بيريز، والتي نعته فيها بالصديق العزيز. كلّ ذلك كان يشير إلى أن حقيقة ما يضمره الإخوان المسلمون هي غير ما يظهروه، وإلى أنهم يملكون مشروعاً واحداً هو الوصول إلى السلطة، حتى لو كان الثمن هو التضحية بالمبادئ والقيم التي لطالما تغنّوا بها واستفادوا منها، داخل وخارج مصر [في الأردن وسورية وغيرها].

لقد ظهرت حقيقة هذا الدور الخطير للإخوان حين تمكّن المصريون من إسقاط حكم الإخوان في الثلاثين من حزيران عام 2013، ليخرج السياسيون الصهاينة ويعلنوا أن «إسرائيل» فقدت بسقوط الإخوان الحليف الأهم والأقرب والأكثر ضماناً لحدودها الجنوبية منذ عشرات السنين. ففي أوّل تعليق رسمي لمسؤول إسرائيلي على الأحداث في مصر، صرّح «إسحاق أهرونوفيتش»، وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي، بأن بلاده تمتّعت بعلاقات جيّدة مع حكم الرئيس المعزول محمد مرسي[26]!

وفي المحصّلة، فقد أتقن الإخوان المسلمون عملية استغلال الفرص ونجحوا في تحقيق مصالحهم الحزبية الضيّقة على حساب مصالح أكبر دولة عربية، وعرفوا كيف يستفيدوا من الشعارات الرنّانة التي رفعوها سابقاً لتحقيق أهداف المشروع الإخواني الكبير الذي يريدون من خلاله السيطرة على أكبر عدد من دول العالمين العربي والإسلامي، من دون أن يكون للقضية الفلسطينية أيّ مكان في مشروعهم الذي عملوا لأجله عشرات السنين،

26- موقع جريدة الأهرام الإلكتروني، 7 تموز 2013.

وكادوا أن يحقّقوه لولا بعض التطوّرات السياسية والأمنية التي فاجأت الجميع، وأدّت إلى تحوّل جذري في المسار السياسي المصري، بسقوط مرسي واستلام وزير الدفاع السابق عبد الفتّاح السيسي للسلطة، لينعكس ذلك بشكل مباشر على «المشروع الإسلامي الإخواني» الذي كان يُعدّ لمصر ما بعد ثورة يناير 2011.

2 ـ القاعدة والحركات السلفية الأخرى

لم يرِد ذكر فلسطين في بيانات الحركات الإسلامية المتطرّفة إلاّ بشكل نادر. فتنظيم القاعدة، الذي يشكّل العامود الفقري لهذه الحركات، لم تكن القضية الفلسطينية قضية محورية بالنسبة له، اللهم إلاّ في بعض المناسبات، حيث ارتبطت المواقف المعلنة منها في حينه بمصلحة هذا التنظيم بالدرجة الأولى. فتنظيم القاعدة لديه أولوية محاربة الولايات المتحدة الأميركية (بحسب زعم قادته) في أيّ مكان من العالم، وبكلّ الوسائل، حتى لو كانت نتائج وتداعيات هذا المنهج الفوضوي كارثية على العالم الإسلامي (كما حدث في هجمات واشنطن ونيويورك وما تلاها).

يقول «غازي أبو ريّا»[27] في مقالة له بعنوان «كارثة فلسطين بأسامة بن لادن... ما زالت مستمرّة»: حين أقام أسامة بن لادن تنظيم «القاعدة» كانت قضية فلسطين ملتهبة. لكن الرجل لم يتكرّم على فلسطين حتى بكلمة واحدة، وراح يجنّد العرب للقتال في أفغانستان[28].

ويضيف: «حين كانت القدس والأقصى تحت الاحتلال، كان الشيخ يقاتل في طوربورا. وعندما كانت انتفاضة الحجر الفلسطينية تعمّ غزّة والضفة

27– كاتب فلسطيني يقيم في قرية سخنين في الجليل الفلسطيني المحتلّ.

28– موقع الحوار المتمدّن الإلكتروني، العدد 831، 11 أيار 2004.

الغربية، كان أسامة بن لادن يقاتل مع الأميركان جنباً إلى جنب. وفرح الشيخ بتحرير أفغانستان من الروس، وسرعان ما سلّمها للأميركان. هذا الشيخ نفسه أصبح وصياً على أرض فلسطين وقضية شعبها؛ لا ينطق بتصريح إلاّ وربط بين تنظيمه وقضية فلسطين. وفقط، بعد «غزوة» نيويورك و«غزوة» واشنطن، فطن إلى فلسطين. ولماذا فعل ذلك؟ لأن هذا الربط يُضفي شرعية لعمله في عيون الكثير من المسلمين»[29]. علماً أن تنظيم ابن لادن لم يطلق رصاصة بوجه «إسرائيل» طوال وجوده. كما لم يرسل أحداً من «المجاهدين» ليفجّر نفسه في رتل إسرائيلي يعتدي على أهل فلسطين. و لم يظهر في يوم من الأيام أن هذا التنظيم قد حاول، ولو لمرّة واحدة، أن يطلق تهديداً ضدّ الكيان الصهيوني يمكن أخذه على محمل الجدّ.

بعد مقتل بن لادن في باكستان عام 2011، لم يتغيّر فكر تنظيم القاعدة الذي ظلّ ينظر إلى الولايات المتحدة على أنها العدوّ الأول، والذي يجب توجيه السلاح نحوه في هذه المرحلة. فيما استمرّت القيادات الجديدة للقاعدة في استغلال فلسطين وقضيتها المحقّة لكسب المزيد من التعاطف والتأييد داخل المجتمعات العربية الإسلامية، والتي تشكّل فلسطين بالنسبة لها قضية وجدانية إيمانية وعقائدية لا فكاك منها.

وفي نفخ لأبواق الفتنة بين الأخوة في فلسطين المحتلة، وجّه زعيم تنظيم القاعدة الجديد «أيمن الظواهري» إلى حركة حماس رسالة حثّها فيها على عدم التفاهم والحوار والتقارب مع حركة فتح، بقوله: «يا إخواني وأهلي في فلسطين حكموا الشريعة في دياركم»، محذّراً إياهم من «المسارعة إلى الوحدة الوطنية مع الخونة المتعاملين مع الإسرائيليين، والتبرّؤ من إخوانهم المسلمين المجاهدين»[30]!

29– م.س.

30 موقع آسيا نيوز، 12 نيسان 2013.

ويتابع: إن حركة «فتح تحوّلت إلى فرع من الموساد. كما تحوّلت إلى مطيّة وأداة في يد أكابر المجرمين في واشنطن وتل أبيب. وأحسب أن كثيراً ممّن التحقوا بفتح لم يكونوا يتصوّرون في يوم من الأيام أن تتحوّل لما تحوّلت له. فهل من عودة وهل من توبة قبل أن يفوت الأوان ولا ينفع الندم؟»[31].

لكن، هناك بعض التيّارات السلفية الفلسطينية التي تنظر إلى الأمور بشكل مختلف. فهي تعتبر الرئيس الفلسطيني محمود عباس «وليّ الأمر الواجب الطاعة». فقد صرّح أحد زعماء الحركة السلفية الفلسطينية الشيخ نبيل نعيمي بالقول: إن الجماعة لا تدخل المعترك السياسي، وتدع ذلك إلى أولياء الأمر من الأمّة. ومن هنا فإننا ننظر إلى الرئيس محمود عباس على أنه وليّ الأمر، ونحن نطيعه بحسب ما أمرنا الشرع»!

أما في سوريا، فإن جبهة «النصرة» التي هي فرع من فروع تنظيم «القاعدة»، والتي تشكّل العمود الفقري لما يسمّى بثوّار سورية، لم تأت على ذكر فلسطين في أيٍ من بياناتها التي تنشرها على شبكة الإنترنت. بل هي كانت تحتفل بعد حصول الغارات الإسرائيلية العدوانية المتالية على سورية (2013 - 2014 - 2016) في كيدٍ واضحٍ للنظام السوري وحلفائه (الشيعة).

كما أن هذه المجموعة التكفيرية جعلت من حزب الله (اللبناني) الذي هزم «إسرائيل»، وشكّل أنموذجاً للشعوب العربية والإسلامية، وعمل جاهداً للدفاع عن القضية الفلسطينية وقدّم تضحيات كبرى من أجلها، جعلته العدوّ الأول لها والذي يجب التخلص منه، بما يخدم أهداف الحركة الصهيونية والمشروع الأميركي في المنطقة؛ علماً أن «النصرة» تحارب اليوم النظام الوحيد في العالم العربي الذي قدّم الدعم المادي والمعنوي والسياسي لحركات المقاومة

31– م.س.

في العالم العربي، الفلسطينية واللبنانية؛ وهو النظام الوحيد الذي وقف في وجه المشروع الأميركي الاستعماري في الشرق الأوسط، ما يضع علامات استفهام كبرى حول النوايا الحقيقية لهذه المجموعات السلفية الإرهابية وحول من يحرّكها ويديرها ويحدّد لها وجهة نشاطاتها الهدّامة. وقد لحقت جماعات تنظيم «داعش» الناشطة حالياً في سورية والعراق بالنصرة وغيرها من القوى التكفيرية لجهة التركيز على محاربة الأنظمة غير الإسلامية في المنطقة، وتجاهل الكيان الإسرائيلي؛ بل والتنسيق معه أحياناً، بذريعة أن راية الجهاد ضدّ هذا الكيان لم تُرفع بعد، بانتظار التخلص من أعداء الداخل أوّلاً!

ويرى مراقبون أن تلك الجماعات المتطرّفة قزّمت القضية الفلسطينية وجعلتها مورداً لجمع الأموال من دول العالم العربي والإسلامي، بدلاً من شدّ الرحال إلى فلسطين والجهاد بالمال والنفس واللسان باعتباره فرض عين على كلّ مسلم ومسلمة، لأن اليهود الصهاينة يحتلّون بيت المقدس، قبلة المسلمين الأولى، والتي ستعود منها دولة الخلافة الراشدة حسب زعمهم. وتعتبر التيارات السلفية «الجهادية» أن من حقّها أن تقاتل من أيّ مكان في العالم العربي دون تحصيل رضى هذه الحكومة أو تلك، كما تفعل الحركات الإسلامية غير السلفية.

يقول «جعفر عبد الرزّاق» في كتابه «الإسلاميون والقضية الفلسطينية»: إن الإسلاميين تميّزوا «طوال العقود الماضية بتبنّيهم للقضية الفلسطينية من منظار إسلامي عقائدي فرضته طبيعة الشريعة الإسلامية ورؤيتها لقضايا الاعتداء، واغتصاب أراضي الغير، ومقتضيات الدفاع الشرعي الذي اعتُبر تكليفاً شرعياً على كلّ مسلم في أية بقعة من العالم»[32].

32– عبد الرزّاق، جعفر، الإسلاميون والقضية الفلسطينية، منظمة الإعلام الإسلامي، (إيران) الطبعة الأولى، 1989.

لكن ما أشار إليه «عبد الرزّاق» بقي مجرّد شعارات رُفعت من أجل الاستفادة منها سياسياً وتعبوياً وشعبياً، باعتبار أن القضية الفلسطينية ما زالت تشكّل عنصر جذب واهتمام كبيرين بالنسبة للشارعين العربي والإسلامي بالرغم ممّا تعرّضت له من محاولات مسح من الذاكرتين العربية والإسلامية، خلال العقود الماضية، من قِبل الكيان الصهيوني ورعاته الغربيين، وحتى من بعض الدول العربية.

لقد كثرت النماذج في العالمين العربي والإسلامي التي جعلت من بعض الدول أرض «جهاد واستشهاد»، بل أرض خراب ودمار، وأرض مجازر وذبح. فقد كان لافتاً أن الحركات السلفية «الجهادية» لم ترسل واحداً من آلاف الانتحاريين المستعدّين لقتل أنفسهم في سورية والعراق وباكستان وغيرها، ولأيّ سبب من الأسباب، إلى فلسطين المحتلة، وأن هذه الجماعات لم تعلن في يوم من الأيام النفير العام، و لم تحرّض شبابها «ومجاهديها» لنصرة شعب فلسطين الذي ينتمي إلى نفس الفكر أو المذهب الذي يتبنّاه السلفيون والوهّابيون. كما لم يعلن تنظيم «القاعدة» (وملحقاته) أرض فلسطين أرض جهاد إلاّ في بعض بياناته وخطاباته، من دون أن يرقى الأمر إلى العمل الجدّي لتحقيق هذه الفكرة، بالرغم من المجازر التي يرتكبها العدوّ ضدّ الفلسطينيين؛ بل اقتصر الأمر على بعض الدعوات الشكلية التي وجّهتها القاعدة لنصرة شعب فلسطين لتبرير تقاعسها فقط.

وفي المقابل، هذه الجماعات عملت، وبشكل منظّم ومدروس، على حشد القدرات البشرية والمادية الهائلة، وعلى تجنيد عشرات الآلاف من الشباب المغرّر بهم من أجل «الجهاد والاستشهاد» في الكثير من الدول الإسلامية وغير الإسلامية في العالم. فمن أفغانستان وباكستان إلى الشيشان والبوسنة والعراق وليبيا، وصولاً إلى سورية ومصر واليمن، تحرّك السلفيون المتطرّفون

من كلّ أصقاع العالم للقيام بما توهّموا أنها فريضة الجهاد ضدّ الدول الظالمة والديكتاتورية، وبشكل عشوائي ومدمّر، حيث تمكنت الجماعات السلفية عبر استخدام أبواق الفتنة الحديثة لديها وبعض وعّاظ السلاطين من رجال الدين الجهلة والمأجورين في السعودية وغيرها، من إقناع أعداد كبيرة من شباب المسلمين المضلّلين بأولوية «الجهاد» في الدول العربية والإسلامية ضدّ أنظمة لم تكن حتى لفترات قريبة يشكّل وجودها مشكلة فعلية بالنسبة لقادة وأتباع التيار السلفي الجهادي. لقد تمكن هذا التيار التكفيري المتخلّف من إبعاد الأنظار عن العدوّ الرئيسي، أي الكيان الصهيوني، وجعل ساحات بعض الدول العربية والإسلامية «أرض جهاد» تجذب كلّ من يريد نيل «الشهادة في سبيل الله». واليوم، الكيان الصهيوني العنصري يعيش في أفضل مراحل وجوده التي لطالما حلم بها قادته، حيث تحوّلت وجهة البندقية العربية والمسلمة من قلب «إسرائيل» إلى قلوب العرب والمسلمين. إن «إسرائيل» الغاصبة لفلسطين تسير حالياً نحو مراحل جديدة من التطوّر والتقدم، خصوصاً مع اكتشاف حقول النفط والغاز الهائلة في البحر المتوسط، فيما أوضاع الدول العربية تسير من سيّئ إلى أسوأ، وعلى كلّ المستويات.

خامساً: الحركات السلفية «الجهادية» في دول الطوق

كما ذكرنا، فقد تمكنت الحركات السلفية «الجهادية»، وفي أوقات قياسية، من تحفيز عشرات الآلاف من الشباب المسلم من مختلف أصقاع العالم للجهاد في مناطق أو دول لم تكن حتى فترات قريبة تشكّل أهمية تُذكر بالنسبة للمسلمين.

فأفغانستان لم تكن تشكّل يوماً أرض جهاد أو قضية مركزية للمسلمين، وكذلك باكستان. و لم تكن البوسنة والهرسك أو الشيشان أو حتى الولايات

المتحدة تشكّل مقصداً محورياً لشباب المسلمين «الجهاديين» قبل بضع سنوات خلت. كما لم يكن للعراق ولا لسوريا ولا للبنان ولا لمصر أهمية في قاموس هذه الجماعات. إلاّ أن الفكر التكفيري التقى مع المشاريع الدولية والإقليمية المشبوهة، ومع الأموال الطائلة التي صرِفت لتغذية ركائز هذا الفكر الإقصائي والإلغائي، ليحوّل الاهتمام العربي والإسلامي بالقضية الرئيسية لدى شعوب المنطقة إلى قضايا ثانوية أو مصطنعة في كثير من الأحيان.

إن آلاف الشباب العرب والمسلمين من كلّ أصقاع العالم يتدفقون يومياً للقتال أو الجهاد، في دولٍ هي على مرمى حجر من فلسطين المحتلة منذ العام 1948. وآلاف القتلى من هؤلاء يسقطون في جبهات ملاصقة لفلسطين المحتلة، بما يدلّ على قدرة كبيرة للمجموعات «الجهادية» ومن يقف خلفها على الحشد والتحفيز وتحريض الشباب المسلم على القتال في جبهات ما بين المسلمين أنفسهم، حيث يقاتل المسلم أخاه المسلم، في مواجهات دموية تسقط فيها المحرّمات والممنوعات والأعراف تحت غطاء أو ستار الجهاد والأولويات الشرعية. لقد أبيح الذبح والإعدام وأكل القلوب وتقطيع الأعضاء تحت راية الجهاد المزعوم؛ هذا الجهاد الذي ملأ بلاد المسلمين، بل بلاد العالم، رعباً وخوفاً، حتى أصبح اسم الإسلام مقترناً أو مرادفاً للإرهاب الدموي الذي لا حدود له.

مع الاجتياح الأميركي الوحشي للعراق عام 2003، بدأت الحركات السلفية «الجهادية» تأخذ حيّزاً مهماً في الأحداث والتطوّرات الأمنية والعسكرية التي تجري على الساحة العراقية. فقد نمت وتكاثرت هذه الحركات، التي تمكنت من حشد عشرات آلاف الشباب المستعدّين للموت والقيام بأيّ شيء للوصول إلى الأهداف التي يعتقدون بها. كما ازدادت العمليات الانتحارية (بلغ عددها بالآلاف في العراق وسورية وأفغانستان

وباكستان... وحتى اليمن وليبيا)، والتي لم يسلم منها مدني ولا عسكري، ولا كبير ولا صغير؛ كما لم يسلم مسجد ولا كنيسة، ولا مواكب الأفراح أو مواكب الأحزان؛ وكلّ هذا الإجرام التكفيري الوهّابي كان يُنفّذ تحت ستار الدين وأحكام الشريعة التي تجيز فعل أيّ شيء من أجل قيام الخلافة الإسلامية المزعومة.

وفي سورية، تمكنت المجموعات «الجهادية» المتطرّفة من تحويل هذه الدولة من أكثر الدول أماناً واستقراراً في العالم العربي إلى دولة مرعبة تفتقد لأدنى مقوّمات الأمن والاستقرار، وذلك من خلال الأعمال الإجرامية التي قامت بها في أعوام قليلة فقط، ومن خلال حشد عشرات آلاف المقاتلين العرب والأجانب (من الشيشان وروسيا وأوروبا وغيرها) الذين عاثوا فساداً وقتلاً ودماراً في هذا البلد المنكوب.

أما في مصر، فقد بدأت الحركات الإسلامية «الجهادية» (تنظيم الإخوان المسلمين وروافده بشكل خاص)، بتنفيذ عملياتها الانتحارية أو العسكرية والأمنية ضدّ الجيش المصري وبعض مؤسسات الدولة، بعد فترة قصيرة من إسقاط حكم الرئيس المصري السابق محمد مرسي، وتحديداً على مقربة من حدود فلسطين المحتلة (صحراء سيناء)، بطرق احترافية تشير إلى قدرة هذه الحركات على تنفيذ أعمال عسكرية (منسّقة أو انتقامية) في التوقيت الذي تراه مناسباً وبقدرات فاقت كلّ التوقعات. كما أظهرت الوقائع الميدانية أن تلك الجماعات الإرهابية تمتلك من القدرات العسكرية والمادية ما يمكّنها من فتح جبهة واسعة ضدّ جيش يُعدّ الأكبر والأقوى في العالم العربي، فيما لم تسعى هذه الجماعات للقيام بأيّ عمل نوعي أو مؤثّر ضدّ الجيش الإسرائيلي المحتلّ، والموجود على مقربة من أرض العمليات التي تُخاض عليها «الحرب الجهادية» المفتوحة ضدّ الجيش المصري حالياً.

وفي لبنان، بدأت المجموعات السلفية المتطرّفة بالنشاط والتحرّك الميداني في أكثر من منطقة لبنانية. كما عمدت هذه المجموعات إلى إرسال الكثير من رجالها لنصرة ما سُمّي «الثورة السورية»، حيث سقط لها في سوريا مئات القتلى في إطار التنسيق مع قوات المعارضة الأخرى، على اعتبار أن لبنان هو «أرض نصرة وليس أرض جهاد». وقد كان لافتاً الأعداد الكبيرة من الشباب السنّي (الملتزم) التي انضمّت إلى تلك المجموعات، والتي تبيّن لاحقاً أنها من جنسيات عربية وإسلامية عدّة، علماً أن عناصر من بينها كانت قد خاضت بالأمس القريب مواجهات دامية مع القوى الأمنية اللبنانية، وخاصة الحرب التي خاضها الجيش اللبناني ضدّ تنظيم «فتح الإسلام» في مخيّم نهر البارد في شمال لبنان عام 2007؛ إضافة إلى عمليات شنّتها بعض تلك المجموعات انطلاقاً من الأراضي السورية ضدّ الجيش اللبناني في منطقة البقاع (عرسال وجرودها)، أو لاستهداف بعض المناطق السكنية، كما حصل في منطقة بعلبك ـ الهرمل، وكما حصل في الضاحية الجنوبية لبيروت، من خلال تفجيرات وعبوات وصواريخ عشوائية أُطلِقت ضدّها، بما أشار إلى تحوّل لبنان، وبسرعة، من أرض نصرة إلى أرض جهاد، في رؤية هذه المجموعات «الجهادية» التكفيرية.

أما فلسطين المحتلة، والتي تجاور ساحات الجهاد المذكورة أعلاه، أو هي على مسافة قريبة منها، فإن المجموعات أو الحركات السلفية «الجهادية»، لم تدعو ـ كما ذكرنا سابقاً ـ في يوم من الأيام للنفير العام والجهاد دفاعاً عن أرض فلسطين الإسلامية وعن شعب فلسطين المسلم. فمنذ النكبة عام 1948، مروراً بالنكسة عام 1967، إلى الكثير الكثير من المجازر التي ارتكبها الصهاينة بحقّ الشعوب العربية والمسلمة في «دول الطوق»، وحتى اجتياح بعض الأراضي المصرية والأردنية والسورية، وصولاً إلى اجتياحي لبنان عام

1978 وعام 1982، إلى انتفاضة الحجارة عام 1987 وانتفاضة الأقصى عام 2000، والعديد من الحروب التي شنّتها «إسرائيل» على لبنان: تصفية الحساب 1993، وعناقيد الغضب 1996، وحرب تموز 2006، وحروب غزة (2008 و2012 و2014) في فلسطين؛ كلّ هذا النهر من الدماء لم يكن ليشكّل حافزاً حقيقياً للحركات السلفية حتى تعلن النفير والتعبئة العامة دفاعاً عن أعراض المسلمين وعن أرض الإسلام التي من المفترض أن تكون جزءاً من أرض الخلافة الموعودة[33]! كما لم يدفع كلّ ما حصل في منطقتنا منذ عقود، أسامة بن لادن أو خليفته الظواهري لإصدار بيان (أو فتوى) يدعو فيه شباب المسلمين للجهاد في تلك الأرض المقدّسة. كما لم يشحذ أبو مصعب الزرقاوي سكّينه، الذي طالما استخدمه في ذبح ونحر المسلمين على «أرض الجهاد» في العراق[34]، ليدافع عن شعب أعزل عانى وقاسى الظلم والاحتلال والعذابات المريرة طيلة عشرات السنين، وهو بقي وحيداً فريداً - كما كان حاله من قبل - ليلاقي مصيره على يد الصهاينة المحتلّين.

33- علماً أن حركة حماس التي تسيطر اليوم على قطاع غزة تعتبر نفسها جزءاً من المشروع الإخواني الجهادي العالمي.

34- مع أن الزرقاوي (المقتول) هو من أشهر من روّج لفكرة الذبح والنحر للمسلمين، حتى سمّي بأمير الذبح.

خاتمة

أكثر ما يلفت الأنظار في المسار التدميري العام الذي سلكته الحركات السلفية والوهّابية التكفيرية خلال السنوات الماضية، هو قدرتها على حشد وتحفيز شباب المسلمين في كلّ مكان للتوجه إلى أرضٍ بعيدة وغريبة عنهم، لكنها من منظار قادة هذه الحركات الإرهابية أراضي جهاد. بل إن هذه الجماعات تمكنت من إقناعِ هؤلاء الشباب المضلّلين بصوابية الخيار الذي تبنّوه، وبقدسية الموت دفاعاً عن خيارهم هذا؛ حتى أصبح كلّ واحد منهم يتمنى نيْل الشهادة المزعومة للقاء الرسول الأكرم (ص) والحصول على الحور العين في الجنّة!

لقد ضلّت ضلالاً بعيداً هذه الجماعات السلفية في كلّ حركتها الفكرية والسياسية والميدانية، لأن انطلاقتها كانت منذ البداية على أسس منحرفة. كما أن هذه الحركات أخطأت في عدم توجيه بوصلتها نحو القضية الأساس: فلسطين، لتنحرف عن الهدف الذي أعلنت عنه وآمنت به الحركات الإسلامية التي سبقتها؛ حتى لم يعد المرء قادراً على معرفة ماذا تريد هذه الحركات المتطرّفة في الواقع، أو إلى أين تريد أن تصل. كما لم يعد قادراً على معرفة من هو عدوّها ومن هو صديقها؛ فتارة العدوّ هو الولايات المتحدة الأميركية، وطوراً العدوّ هو الأنظمة الاستبدادية الظالمة التي تحكم العالم الإسلامي، ومرّة يكون العدوّ هو الشيعة، ومرّة أخرى يكون العدوّ هو كلّ من يخالف هؤلاء السلفيين الوهّابيين في أفكارهم وقناعاتهم. ولكن، لم تكن «إسرائيل» في لحظة من اللحظات هي العدوّ الذي من المفترض أن تُسخّر كلّ الإمكانيات المادية والبشرية لقتاله والقضاء عليه واستعادة حقوق المسلمين والفلسطينيين منه بالقوّة.

ولو قدّر لتلك الجماعات «الجهادية» أن توجّه قدراتها الهائلة نحو القضية

التي كانت وما زالت تشكّل القضية الأولى للعالمين العربي والإسلامي، أي قضية فلسطين المحتلة، لكان شأن هكذا توجّه أن يسخّر قدرات الشباب العربي والمسلم في المكان الصحيح، الأمر الذي سيؤدّي إلى انقلاب الموازين أو المعايير الحالية في إطار الصراع العربي - الإسرائيلي، الأمر الذي من شأنه أن يعجّل في استعادة الأراضي الإسلامية المحتلة في فلسطين ولبنان والأردن وسوريا، ويعيد كرامة المسلمين المهدورة على يد الصهاينة منذ نحو قرن من الزمن.

إن قدرة هذه المجموعات العجيبة على حشد «المقاتلين» المندفعين في مختلف البلدان، كما حصل في أفغانستان والعراق ومؤخراً في سورية، هي أكبر إدانة لها على تقاعسها وخذلانها لفلسطين، ولوقوفها موقف المتفرّج على هول ما يحصل في أراضي فلسطين المحتلة. وإن استعداد شباب تلك الحركات السلفية المتطرّفة للتضحية كان يمكن الاستفادة منه بشكل فعّال في الصراع العربي - الإسرائيلي، وتحديداً لمنع الكثير من المجازر التي ارتكبها الصهاينة الغزاة بحقّ الشعوب العربية والمسلمة في دول الجوار، خلال العقود الفائتة.

إلاّ أن امتناع هذه التنظيمات عن نصرة فلسطين عملياً، والتي تشكّل رمزية مقدّسة لدى كافة المسلمين، وتقاعسها عن القيام بواجبها الشرعي اتجاه الشعب الفلسطيني، بالرغم من بعض التصريحات والبيانات الموسمية لعدد من قادة هذه المجموعات حول فلسطين ونصرة أهل فلسطين، يدفع المرء للتشكيك في التوجهات الحقيقية لهذه التنظيمات وفي الجهات التي تحرّكها وتموّلها. وفي نظرة موضوعية عامة، يبدو لنا بشكل واضح أن الحركات السلفية «الجهادية» لم تتحرّك بقوّة في يوم من الأيام نحو «جبهة» أو «أرض جهاد» يكون فيها الإسرائيلي أو الصهيوني هو العدوّ؛ كما لم تكن حرب تلك الحركات بوجه الولايات المتحدة الأميركية، والتي تعتبرها العدوّ رقم واحد، إلاّ في مواضع محدودة وحتى مشبوهة، كما جرى في هجمات نيويورك وواشنطن

(أيلول 2001)، في وقتٍ ركّزت فيه تلك الجماعات عملياتها التدميرية ضدّ المسلمين المخالفين لها في العقيدة والفكر والإيديولوجيا، كما هو الحال في العراق منذ العام 2003، حيث صُبّت الهجمات التكفيرية على المسلمين الشيعة وعلى المسيحيين (خصوصاً العمليات الانتحارية)، في وقتٍ كانت العمليات العسكرية للمتطرّفين ضدّ المحتلّ الأميركي محدودة وعشوائية. وهكذا هي الحال في سوريا منذ عدّة أعوام، حيث تمّ حشد عشرات آلاف «الجهاديين» من مختلف أنحاء العالم لمقاتلة الجيش السوري على أرضه وقتل عشرات الآلاف من المدنيين السوريين في عمليات انتحارية وحشية رهيبة. وبعد استلام الجيش المصري للسلطة في مطلع تموز 2013، بدأت المجموعات السلفية التكفيرية تظهر في صحراء سيناء المصرية لتقوم بعمليات خطف وقتل بشعة ضدّ أفراد الجيش المصري وضبّاطه وضدّ المدنيين، فيما «إسرائيل» التي تبعد مئات الأمتار عن ساحة المعارك تنعم بالأمن الذي طالما تمنّته منذ زمن بعيد دون أن تتمكن من الوصول إليه، لا حرباً ولا سلماً!

وفي الواقع، لقد حاربت تلك المجموعات والحركات المتخلّفة كلّ من عادى وحارب الولايات المتحدة الأميركية. فإيران عدوّ، وحزب الله عدوّ، والنظام السوري عدوّ، والشيعة في كلّ العالم أعداء. أما حلفاء الولايات المتحدة من حكّام العرب والمسلمين، فهم ولاة الأمر الواجب طاعتهم والسيْر على هديهم وخطاهم؛ أو على الأقلّ ليس من الأولويات قتالهم بشكل مفتوح في هذه المرحلة!

إن تصرّفات وممارسات المجموعات السلفية قد أصابت الإسلام والمسلمين في الصميم. واليوم، لم تعد الدعوة إلى الإسلام تلاقي تجاوباً لدى الآخرين (من العرب أو الأجانب)، وأصبح هذا الدين العظيم مقترناً [إلى حد كبير] بالإرهاب والعنف والقتل. لقد أدّت تصرّفات وأفعال هذه المجموعات

الشنيعة إلى جعل المسلم نموذجاً للإنسان المتخلّف، أو الوحش الذي ينهش كلّ من يقف في طريقه، في وقتٍ لم تكن حقيقة الإسلام والمسلمين في يومٍ من الأيام كما يصوّرها هؤلاء السلفيون الإرهابيون حالياً.

أليس الإسلام دين محبّة وتسامح وعفو؟ ألم يقم الإسلام على قاعدة «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»؟ ألم يقم على مبدأ لا إكراه في الدين؟ إذاً، من أين جاء أصحاب الفكر التكفيري بأفكارهم السوداء تلك؟ هذه الأفكار التي تدعو إلى القتل والنحر والذبح والانتحار تحت شعار الإسلام. هذه الأفكار التي حرفت الإسلام عن حقيقته، والتي قامت على أساس عبادة الله والكفّ عن محارمه والدعوة إلى الدين بالحكمة والموعظة الحسنة. هل ما نشهده اليوم في عالمنا الإسلامي، بل وفي العالم أجمع، هو من مكارم الأخلاق التي حثّ عليها ديننا العظيم؟ وهل ما نشاهده من جرائم بشعة على شاشات التلفزة وفي مواقع التواصل الاجتماعي هو من مبادئ الدين ونهجِ النبي (ص) والسلف الصالح؟ وهل الدعوات التي تطالب بذبح وقتل كلّ من يخالف الوهّابية التكفيرية، من سنّة وشيعة ومسيحيين وغيرهم، هي دعوات أخلاقية ومشروعة؟ وأين هي القِيم الرفيعة التي جاء بها رسول الرحمة محمد (ص) في فكر وعقيدة وثقافة هؤلاء المجرمين؟

وختاماً، لو تعمّقنا قليلاً في كواليس هذا الفكر السلفي الوهّابي، وفي خفايا وأسرار هذه الحركات السلفية، لوجدنا أن العقل الصهيوني الخبيث والإجرامي قد توغل فيها، وأصبح هو المعين أو النبع الذي تنهل منه أفكارها الشيطانية (عن علم منها أو من دون علم، لا فرق)، ولوجدنا أن خلف كلّ شرّ وإساءة للإسلام والمسلمين، كانت ـ وما تزال ـ الصهيونية والولايات المتحدة الأميركية، والوهّابية المتخلّفة، المتمركزة في شبه الجزيرة العربية على بحر من النفط والثروات الهائلة، والتي تُبدّد من قِبل القائمين على السلطة فيها، لضرب الإسلام المحمّدي الأصيل وترسيخ سيطرة القوى الأجنبية والصهيونية في المنطقة.

مراجع

- أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية، ج1، دار الفكر العربي، 1987.

- الأبطحي، مرتضى، الشيعة في أحاديث الفريقين، الناشر: السيد علي المعلم، الطبعة الأولى، 1416هـ، المطبعة: أمير.

- براون، ناثان، مقالة في مجلة السياسة الدولية، ترجمة د. مروة نظير، 10 أيار 2013.

البريدي، عبدالله، السلفية الشيعية والسنّية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2013.

- جماعة من الباحثين (تحقيق)، الوهّابية في العراء، موقع كشف الوهابية Kashef–alwahabeia.blogopost.com 11 /11 /11

- جريدة صدى البلد، 2013/6/3

- الخشن، حسين أحمد، العقل التكفيري، المركز الإسلامي الثقافي، مجمع الإمامين الحسنين (ع)، بيروت، 2013.

- الخنيزي، السلفية والشيعة، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان، 2012.

- الخطيب، محمد عوض، الوهّابية: فكراً وممارسة، مركز الغدير، ط3، 2011.

- الخرباوي، ثروت، سرّ المعبد ـ الأسرار الخفيّة لجماعة الإخوان المسلمين، دار نهضة مصر، ط1، 2007.

- رسالة علماء تونس المحميّة إلى الضالّ الوهّابي، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 2007.

- زهر الدين، صالح، الحركات والأحزاب الإسلامية وفهم الآخر، دار الساقي، بيروت، ط1، ص 2012.

- السبحاني، جعفر، ابن تيميّة: فكراً ومنهجاً، دار الإمام الصادق (ع)، بيروت، 25 صفر/1432هـ.

- سالم، محمد رشاد، منهاج ابن تيمية 289/3، مؤسسة قرطبة (مأخوذ من النزعة التكفيرية في فكر الوهابية، مكتبة مدبولي، القاهرة).

- سليمان، عصام، الحرب على الإرهاب والقانون الدولي الإنساني، مجلة الجيش اللبناني، العدد 333، 2004/7/1.

- شبكة تابناك الإخبارية، 2014/2/14.

- الشيباني، رضوان أحمد شمسان، الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005.

- شبكة الدفاع عن السنّة، 2012/9/7.

- شبكة "سحاب" السلفية.

- صالح، نبيل علي، السلفية الدينية في المجال التاريخي الإسلامي ـ دراسة مقارنة، المنهاج، 2007. [المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق].

- صالح، محسن، دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، دار فجر يولانغ، ماليزيا، ط1، 2003.
- صقر، شحاتة محمد، "الشيعة هم العدو فاحذرهم"، موقع فرسان السنّة، 2009/9/3.
- صفوت، حسين، الإخوان المسلمون والقضية الفلسطينية (1936 - 1949)، دراسات في تاريخ الحركة الإسلامية، الموقع الإلكتروني للموسوعة الرسمية للإخوان المسلمين.
- الطويل، كمال، القاعدة وأخواتها، دار الساقي، بيروت، ط1، 2007.
- عماد، عبد الغني، صحيفة النهار، 2005/8/12. [موقع اللبنانيون في "إسرائيل"].
- عماد عبد الغني، الحركات الإسلامية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2013.
- العناني، خليل، التيارات الإسلامية في عصر الثورات العربية، مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، 9 أيار 2013.
- عبد الرزّاق، جعفر، الإسلاميون والقضية الفلسطينية، منظمة الإعلام الإسلامي (إيران)، ط1، ص 1989.
- غربة الإسلام والمسلمين (مقالة)، 2003/2/11.
- الفخراني، اليماني، النزعة التكفيرية في فكر الوهّابية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2012.
- القصيمي، عبدالله، الثورة الوهّابية، دار الانتشار العربي، بيروت، ط2، 2007.
- قصير، قاسم، إشارات على الفيسبوك، 2011/10/17.
- قلب الإخوان: محاكم تفتيش الجماعة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 2013.
- الكحل، سعيد، موقع الصباح، 2011/5/13.
- مذكّرات مستر همفر، تاريخ الوهّابية www.alseraj.net
- مكرم، ياسر، جريدة الصحيفة [فايسبوك]، 1976/10/31.
- موقع الجزيرة نت، 2014/2/19.
- موقع مركز الغدير، 1994.
- موقع مدوّنة السلفية والسلفيين، 2012/7/25.
- موقع أون إسلام (on islam). 2010/12/3.
- موقع مجلة الديمقراطية، 2017/9/6.
- موقع "تورس" الإلكتروني.
- موقع منتديات كلّ السلفيين الإلكتروني 2014/3/28.
- موقع إخوان أون لاين، 2013/12/14.
- موقع أنا المسلم، 2005/5/14.
- موقع الخبر، 2011/4/9.
- موقع العربية نت، 2013/5/29.

- موقع هسبريس،، 2009/9/25.
- موقع نهار نت .(naharnet) . 2012/7/10.
- موقع CNN بالعربية، 2012/7/28.
- موقع الوطن، 2013/5/10.
- موقع الفجر، 2014/1/24.
- مدوّنة هاني، حول سورية والعالم، 2012/1/12.
- موقع .(Syrianow) . 2012/2/15.
- موقع تلفزيون الشراع، 2013/12/20.
- موقع مبتدأ قبل الخبر، 2013/6/15.
- موقع صحيفة الثورة، 2013/7/11.
- موقع قناة BBC العربية، "محطات مختلفة في خلافات الجهاديين"، مراد بطل الشيشاني، 22 نيسان 2013.
- موقع جريدة الأهرام الإلكتروني، 7 تموز 2013.
- موقع الحوار المتمدّن الإلكتروني، العدد 831، 11 أيار 2014.
- موقع آسيا نيوز، 12 نيسان 2013.
- موقع مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2014/1/24.
- المليجي، سامي قاسم أمين، الوهّابية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 2005.
- مؤتمر سماحة الإسلام وفتنة التكفير، دار الأمير، بيروت، 2013.
- مؤتمر هرتسيليا (11)، الكابوس الشيعي، ترجمة وإصدار مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية، بيروت، 2012.
- مجلة الرأي الآخر، العدد 48، 2010/9.
- مشهداني، أكرم، مجلة البيان الإلكترونية، العدد 289، 28/تموز/2011.
- مركز كارنيغي للشرق الأوسط، جماعة الإخوان المسلمين في سورية، 10 حزيران 2012.
- ميتشل، ريتشارد، الإخوان المسلمون وفلسطين، صحيفة السفير، ملحق فلسطين، العدد 23، السنة الثانية، 15 آذار 2012.
- النبهاني، تقي الدين، "كيف هُدمت الخلافة..."
.http://www.facebook.com/no4E5wanismailia
- ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، تواريخ مختلفة.
- وكالة أنباء .(ONA) 2014/1/4.
- الورداني، صالح، مقالة، ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.
- اليساوي، شاكر، السلفية: نشأتها وفكرها، مجلة الطريق، العدد3، 2000.

هذا الإصدار

شكّل صعود الحركات والجماعات السلفية والتكفيرية في المنطقة خلال الأعوام الأخيرة مفاجأة للمراقبين والخبراء والمحلّلين السياسيين، ليس بسبب منسوب العنف والوحشية المرتفع الذي مارسه - ويمارسه - أتباع هذه الجماعات الإرهابية المتطرّفة فقط؛ بل لمدى أو حجم الانتشار الواسع الذي استطاعت تلك الجماعات تحقيقه خلال أعوام قليلة، وخصوصاً بين الفئات الشابة في المجتمعات العربية والمسلمة في أغلب بلدان ودول العالم.

كذلك، فإن احتلال بعض تلك الجماعات السلفية لمناطق شاسعة في العراق وسوريا وليبيا واليمن، على خلفية ما سمّي بـ«الربيع العربي» الذي بدأ من تونس في أواخر العام 2010، وتمكّن هذه الجماعات من إطلاق موجات واسعة من العمليات الإرهابية الوحشية، بموازاة الاجتياح العسكري المذكور، في ظلّ بيئة حاضنة تتوسع باستمرار؛ كلّ هذا الواقع السياسي - الأمني الجديد، والذي تأسس على مرتكزات مادية وفكرية قوية (موارد مالية ضخمة - أفكار وفتاوى مزيّفة)، والذي عكس - ويعكس - تداعيات كبرى على ملفات المنطقة الرئيسية، يدفع للاهتمام المتزايد بهذه الظواهر التكفيرية الخطيرة والمرعبة، والتي كسرت أو أزالت الحدود الجغرافية، وحتى القيم الإنسانية والأخلاقية التي سارت عليها الأمم والشعوب منذ عقود في هذه المنطقة المنكوبة المسمّاة بالشرق الأوسط.

في القسم الأول من هذه الدراسة كلام حول نشأة السلفية الوهّابية وتطوّرها، والفوارق بين السلفية التقليدية والسلفية «الجهادية» التكفيرية، والتنظيم الهيكلي لهذه الجماعات، وعلاقاتها بجماعة الإخوان المسلمين المصرية، ومواقف تلك الجماعات من الشيعة ومن المقاومة ضدّ «إسرائيل» ومن «إسرائيل» نفسها! أما القسم الثاني من الدراسة، فيركّز على البعد السياسي والميداني في حركة الجماعات المتطرّفة، والتي تشمل القاعدة والجماعات التي انشقّت عنها، وتأثيرها على فلسطين (كقضية) والدول المجاورة لها.

بيروت / لبنان هاتف: 01-842882
تلفاكس: 01-843882 ص.ب:25/408
E-mail: baheth@bahethcenter.net
www.bahethcenter.net